

51

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة العاشرة. العدد الواحد الخمسون: ذو القعدة/ذو الحجة 1437هـ الموافق لـ جويلية/أوت 2016م



السلفية حق والشيعة باطل

من أصولِ التّربية الإسلاميّة عند الإمام ابن باديس رحمه الله

يونس بوحمادو

الثبات وأهميته في حياة المسلم

عز الدين رمضاني

منحة القدير بكشف شبهات الشيعة حول آية التطهير

عبد الله بوزنون

مفهوم العفة في الإسلام

عمر الحاج مسعود

نظم ابن غازي في الذبائح / دراسة وتحقيق: فؤاد عطا الله

السعر: 200دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112.6825

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.

■■■

قريبا عن دار الفضيلة...



إعلان

نظرا لشكاوى القراء من عدم توفر المجلة في المكتبات الكائنة بمناطقهم ـ ندعو جميع المكتبات عبر الوطن إلى الاتصال بإدارة التوزيع بدار الفضيلة قصد توفيرها والله الموفق.

هاتف: 08 53 62 0661


﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44) عين النعجة (بئر خادم) ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: 38 56 57 (023)

(النقال): 92 99 06 (0559)

التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com



افتتاحية

مدير المجلة

السلفية حقٌّ والشيعة باطلٌ

منَ الجُمل التَّضليليَّة الَّتي يرُاد ترويجُها وتسويقُها إعلاميًّا قولُ بعضهم: (إنَّنا نُريدُ صونَ الجزائر منَ الشِّيعَة والسَّلفيَّة)؛ لكنَّ الفطنَ النَّبيه لا يروجُ عليه مثل هذا الخَلْط والتَّلبيس، ويُدركُ تهافُتَ العَطْف الواقع في العبارة؛ لما فيه منَ إيهام التَّسوية بينَ مختلفَيْن مُتَباينَيْن؛ فالفَرقُ بينَ السَّلفيَّة والشِّيعَة كالفَرق بينَ البَياض والسَّواد، والفَرق بينَ الحقِّ والبَاطل، فالسَّلفيَّةُ دعوةٌ إلى السُّنَّة، والشِّيعَةُ دعوةٌ إلى البدعَة، والسَّلفيَّةُ عودَةٌ إلى الإسلام الصَّحيح الأصيل، والشِّيعَةُ تجرُّ النَّاسَ إلى إسلام محرَّف دخيل، والسَّلفيَّةُ تَسير على منهَج أهل العلم وطريقتهم، وأمَّا الشِّيعَةُ فتسلُكُ طرائقَ أهل الجهل والزَّندَقَة؛ ولهذا يقرِّرُ ابنُ تيميَّة في «منهاج السُّنة» (135/4) حقيقةً مهمَّةً وهو أنَّه «لم يُعْلَم عن أحَد من أتباع الأئمَّة الأربعَة أنَّه اتُّهم بالرَّفْض، لبُعْد الرَّفض عن طريقَة أهل العلم»، وذلك كما يقُول في موطن آخر (303/6): «لأنَّ أصلَ المذهَب إنَّما ابتدعَه زنادقَةٌ منافقُون، مُرادُهم إفسَاد دين الإسلام».

فالشِّيعَةُ الرَّافضَة خطَرٌ حقيقيٌّ يُهدِّدُ كيَانَ أمَّتنَا، على عكس السَّلفيَّة تمامًا؛ فهي ارتباطٌ وثيقٌ بالوحي، وأهلُها من ألْزَم النَّاس لطريقَة أهل العلم، همُّهم بَثُّ العلم ونشر السُّنَّة، وبَسْط الهدَاية في الأمَّة، لا تهديدًا للأمن، ولا تشكيكًا في مرجعيَّة دينيَّة صَحيحَة، ولا إثارةً لنَعْرة طائفيَّة خبيثة؛ ومن دلائل سَلامة صُدُور السَّلفيِّين وحُسْن قَصْدهم أنَّهُم لا يُعرَفُ بينَهُم شيءٌ اسمُه التَّنظيم السِّرِّي؛ فكيفَ يُتوَقَّعُ منهُم الإفسَاد في الأرض، أو يُظنُّ أنَّهُم يبغُونَ بأمَّتهم الغَوائل؟!

فيُقالُ للمُشكِّكين: لمَ لا تَلْزَمُون الأدَبَ الشَّرعيَّ وتتجادلون معَ السَّلفيِّين بالحسنَى، وتُحاكمُونهم إلى الكتَاب والسُّنَّة وهدْي سَلَف الأمَّة، وتُقارعون الحُجَّةَ بالحجَّة، وألاَّ تستَخفُّوا بما عندَهُم منَ الحقِّ والصَّواب؛ ودَعُوا التَّلبيسَ والمغَالطةَ والقَولَ بغَيْر علم؛ وإن أردتُم صَوْنَ مرجعيَّتنا الدِّينيَّة وحفْظَ أسوَارها؛ فبالعلم والتَّبَصُّر في الحقَائق وقوَّة الإقناع، والمجادلة بالَّتي هي أحسَن، والمناظرة على طرائق أهل العلم، لا بأسلوب التَّشويه والتَّشغيب وتَسْفيه المُخالف وإقصائه.

فحقٌّ أن تُصانَ الجزائرُ منَ الشِّيعة الرَّافضَة ومن كلِّ نحْلة وطائفَة مخالفَة، ولكن ليسَ حقًّا أن تُذادَ منها السَّلفيَّةُ، بل حقُّها أن تُصانَ وتُرعَى حقَّ الرِّعايَة لاتِّساقها مع المرجعيَّة الدِّينيَّة الحقيقيَّة لهذا الوطَن، الَّذي لم يكن رائدُ نهضته العلميَّة والدِّينيَّة عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللهُ سوى عالم سلفيٍّ، مُلازم للكتَاب والسُّنَّة على فَهْم السَّلَف، مُنابذ للبدَع والمحدَثات، سائرٍ في دعوته على طريقَة أهل العلم ومنهجهم؛ وهو ما يُشعرُ أنَّ السَّلفيَّةَ عريقةٌ في هذا البلد وليسَت دخيلَة؛ فمَن حاوَل اقتلاعَها إنَّما يُحاول أمرًا مُحالا.



محتويات

السنة العاشرة ـ العدد الواحد والخمسون:
ذو القعدة ـ ذو الحجة 1437/جويلية ـ أوت 2016





23
منحة القدير بكشف شبهات الشيعة حول آية التطهير

31
الثبات وأهميته في حياة المسلم

غلاف العدد السابق





قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

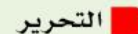
المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع
التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44)
عين النعجة (بئر خادم). الجزائر
الفاكس: 32 08 52 (023)
البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

سعر النسخة: (200 دج)
الاشتراك السنوي: (1500 دج)



الشَّباب
بين الآلام والآمـــال



مـن المشـكلات الَّتـي تعـاني منهـا المجتمعـاتُ البشـريَّةُ في هـذا العصـر مشكلةُ الشَّباب، بكلِّ مُقدِّماتها وأبعادها؛ للنِّسـبةِ المُرتفِعَـةِ الَّتـي يمثِّلونهـا في بنيَةِ المجتمـع، وللدَّورِ الَّـذي يُؤدُّونه في بنائه أو هَدمِـه، وفي الحفاظ على قِيَمِـه ومُثُله، أو تمييعها وإضاعتها، فهم إمَّا دُعاةُ المساوئ والرَّذائل، وإمَّا دعاةُ المحاسن والفضائل، لِمَا لهم من سـرعة الاندفاع نحو الشَّـيءِ حسـنةً كان أو سيِّئةً، والشَّـبَابُ في أيِّ أمَّةٍ من الأمم هم العمود الفقري الَّذي يُشـكِّلُ عنصرَ الحركةِ والحيويَّةِ، ولم تنهضْ أمَّةٌ ـ غالبًـا ـ إلاَّ علـى أكتـاف شـبابها الواعي وحماسَـته المُتجدِّدة، وعطائه المُتدفِّق؛ إذ الشَّـبابُ ربيـعُ عُمرِ الإنسـان، فيه يجتمع نشـاطُ البـدن وخفَّتُـه، ووقـادةُ الذِّهن، وقوَّةُ الذَّاكرة، وحبُّ الاسـتطلاع، وسرعةُ الاندفـاع، وخوضُ المغامـرة، والتَّحلِّـي بالمثابرةِ وما إلى ذلك من أخلاق الرِّجال الَّتي لا تجتمع للإنسان إلاَّ في تلك المرحلة الحاسمة من عُمره.

وقد اتَّفق علماءُ الشَّرع وعلماءُ النَّفس والتَّربيةِ والاجتماع على أنَّ مرحلةَ الشَّباب في حيـاةِ الإنسـانِ هـي المرحلـة الأخطر والأدقُّ باعتبارهـا ـ وهـذا عنـد علمـاء الشَّـرع ـ بدايةَ التَّكليف الشَّـرعي، ونشوةَ العمـر وجدَّتَـه، ووقـتَ البـذل والعطاء، وزمنَ التَّضحيات واقتحام الأهوال، ولهذا اهتـمَّ المصـلحون والمُربُّونَ بفئة الشَّـباب وسَـعَوْا إلى الاهتمام بهم ورعاية شؤونهم وتوجيه مسارهم ووقاية أخلاقهم وتقويم انحرافهـم بـكلِّ ما يملكـون من وسـائل وأسـباب؛ سـعيًا منهـم للسُّـموِّ بهم نحو مُهمَّاتِ الأمور، والوصـولِ بهم إلى معالي الغايـات والمحافظة على سـلامة المجتمع وأمنه.

ومـن مُنطَلَـقِ اهتمام الإسـلام بهذه الشَّـريحة من فئات المجتمع وما يُوفِّره لها من الوسـائلِ والحلولِ الَّتـي تَحفَظُها من الـتَّردِّي والانتكاس، والضَّـياع والإفلاس؛ فـإنَّ أهمَّ مَقصَـد يجب أن تعتنـي به أمَّةُ الإسـلام، وتتظافـر لأجله جهـودُ المُربِّين والمُصـلحين والقائمـين علـى التَّعليم هو حراسـةُ ورعايةُ هذه الفئة الحيَّـةِ بتهيئة المحيـطِ المُلائـم لهـا، وتسـخيرِ وسـائلَ مُجديَـةٍ لتحقيـقِ تربيـة مُهذَّبـة مُوفَّقة، قوامُهـا المُعتَقَد السَّـليم والخُلُـقُ القويم، والأدبُ الرَّفيـعُ والعلـمُ النَّافـع والعمـل المُثمِرُ الصَّـالح، وعزلها عـن كلِّ ما يُثبِّط عزائمَهـا، ويفسـد أخلاقَهـا، ويُضـعِفُ إيمانَها ويبعدها عـن دينها ويرمي بها في أحضان الفساد والرَّذيلة.

وعنايـةُ الإسـلام بالشَّـباب تظهـر ابتداءً في تدابير الوقايةِ الَّتي وفَّرها لهم؛ لحفظهـم من الزَّيغ والانحراف وأسـباب الغواية، وتبصيرهم بسُبُلِ النَّجاةِ والفلاحِ وتَلمُّسِ أسباب الهداية.

ومـن أَنجَـع أسـباب وقاية الشَّـباب مـن الانحـراف تحبيبُ طاعـة الله إليهم وإطلاعُهـم على ثمراتهـا وآثارها، فليس للشَّـباب مثـلُ طاعـة الله، فبهـا يُزكِّـي نفسَه، ويَرقَى في الفضائل، ويَسمُو بها عن الرَّذائل، ولذلك كان من جملة من يُظلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه «شَـابٌّ نَشَأَ في عِبَـادَةِ الله»، وهذه مَكرُمَةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّ عبادةَ الله في مثلِ هذه السِّنِّ أشدُّ وأصعبُ

لقوَّةِ الباعث على اتِّباع الهوى ونيل الشَّهوات والرَّغبة في تحصيل الملذَّات، خصوصًا إذا انضاف إلى ذلك الفراغُ والمالُ على حدِّ قول الشَّاعر:

إنَّ الشَّبابَ والفراغَ والجِدَهْ

مَفسدةٌ للمرءِ أيُّ مَفسَدَهْ

فالشَّابُّ إذا تربَّى في حضن الطَّاعة ونشأ نفسَه عليها تولاَّه الله ورعاه وأعانه على تَخطِّي المَزالق في الحياة، وأكرَمَه في الآخرة بظلِّ العرش، وكأنَّه لمَّا فرَّ في الدُّنيا من نار الشَّهوات وحَرِّ الملذَّات جزاه الله من جنس عمله، فأظلَّه ووقاه حرَّ شمس ذلك اليوم وعَرقَه.

ومن تدابير وقاية الشَّباب عدمُ تمكينهم من مخالطة الفتيات والعمل على مَحْو فكرة الْتِقَاء الجنسَيْن من أذهانهم بحجَّة كسر حاجز النَّفس وهَيبَة الجنس للجنس، بدلاً من النُّفرة بينهما على ما هو مذهب «فْرُويْد» الإباحي ومن ارتضاه من ضعفاء الحصانة العقديَّة والسُّلوكيَّة عندنا؛ الَّذين يَهُشُّون للمنكر، ويَودُّون لو نَبَت الجيلُ في حَمأَته، وما زال أهلُ هذه الملَّة منذ فجر الإسلام يَعدُّون الاختلاطَ من فتن الدَّهر وقواصم الظَّهر، وهو الَّذي جلب الشُّرورَ والويلاتَ إلى صفِّ الأمَّة فاختنقت الفضائلُ في ضجَّته، وذابت الثَّوابتُ في معركته، وفقَدَ بذلك مجتمعُ أهل الإسلام إحدى دُرَره الغالية في حفظ الفضيلة، حين رضخ لصيحات دعاة الاختلاط وخضع لبلواهم.

ومن تدابير وقاية الشَّباب دعوتُهم إلى التَّحصُّن بالزَّواج في سنٍّ مُبكِّرة؛ إعفافًا للنَّفس، وحمايةً لها من الفواحش، وابتغاءً للنَّسل الصَّالح والجيل الخَيِّر، وما إلى ذلك من المقاصد الشَّريفة، ولم يَخُصَّ النَّبيُّ ﷺ فئةً من الأمَّة حين أمرَهَا بالزَّواج إلاَّ فئةَ الشَّباب: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ»، فبالزَّواج والتَّشجيع عليه وتيسير مُؤَنِه تنتظم حياةُ الشَّباب وتتهذَّب نفوسُهم، ويَقلُّ الفسادُ في الأمَّة، وتضيع خططُ الأعداء الماكرةُ لنشر المسالك الدَّاعرة، ويَسري في ذكورهم دمُ الفحولة والرُّجولة، وفي إناثهم دمُ العفَّة والفضيلة.

ومن تدابير الوقاية غلقُ وسائل الشَّرِّ في وجوههم وأسبابِ الفتنة والانحراف الصَّارفة لهم عن مَأخَذ الجدِّ ومعاقد العزِّ؛ من الملاهي والبرامج والمشاريع الَّتي لا تزيد إلاَّ في اضطرام نار شهَواتهم وتأجيج شرارة غرائزهم ليكونوا عبيدًا لشَهواتهم مُتحرِّرين من سُلطان العبوديَّة لله، وهذا جانبُ فتن الشَّهوات.

ولفتن الشُّبُهات الَّتي تَعرِضُ للشَّباب المستقيم خَطرٌ مُؤكَّدٌ وهاجسٌ بات يَقُضُّ مضاجعَ العقلاء في الدُّول والحكومات في البحث عن أَنجَع الحلول الَّتي تَكبَحُ جُمَاحَ السَّيل المُتدفِّق على عقول الشَّباب من مُضلاَّت الأهواء وغرائب التَّصوُّرات الَّتي أَفرَزَتْها العقائدُ الفاسدة والأفكارُ الهدَّامةُ والتَّوجُّهاتُ المُغرضةُ، تُحرِّرُ بأقلام ذاهلة تُنسَبُ للدِّين والعلم، وتُمرَّر عبر شَبكاتٍ ومواقعَ ماكرة، تُروِّج للباطل في صورة الحقِّ، مُطوِّعةً له النُّصوص، مُوغلَةً في إقناع الشَّباب بضرورة التَّغيير والانقلاب على الأصيل، وهكذا في سلسلة من الضَّربات الموجعَة، والهزَّات العنيفة تدفعها الأمَّةُ بسبب فكر مُنحرف أو مَذهب سوءٍ أو مَطمَع دنيويٍّ، ما أشقى من تولَّى كبرَها!

فإذا أردنا لشبابنا أن يسودَ، وأن يعودَ إلى رُشده ويعيَ مسؤوليَّته في هذا الوجود، فعلينا أن نُنشِّئَه في رياض العلم والتَّربية، يُشارِفُ السَّلفَ في عقائده وعباداته وأخلاقه، ونُقوِّي صلتَه بالله وصدقَ الاعتماد عليه، ونربطُ أنفاسَه بغرزِ العلماء الرَّبَّانيِّين، ونَصرفُه عن أهل الأهواء وقلاعهم الخفيَّة وعن الاستئناس بالباطل؛ فإنَّ أعظمَ ما يُحيلُ الإنسانَ عن الحقِّ ويُحيدُه عنه هو كثرةُ مخالطة الباطل ومجالسة أهله بلا معرفة سابقة بالحقِّ؛ مُؤصَّلة ومُحكَمة، فقد يُبتَلى من يُكثِر مطالعةَ الباطل أَكثَرَ من الحقِّ ككتابات الصُّحف ومقالات ولقاءات إعلاميَّة وتغريدات نصِّيَّة بذهاب معرفة الحقِّ من قلبه وهو لا يشعر.

وهذا دينُ الملَّة ودَيْنٌ على الأمَّة يجب على أهل الغَيرَة منهم أن يقفوا وقفةَ رجل واحد ويَهُبُّوا لنَجدَة هؤلاء الشَّباب وانْتشَالهم من أَوْحَال الضَّلال ومكايد الضُّلاَّل.

فإذا لم يفعلوا وتقاعسوا دون أن تَمْتَدَّ لنَجدَتهم يدٌ، ولا يُوضَعَ لمأساتهم حدٌّ، ولا تُعالَجَ أزماتُهم بجِدٍّ، صاروا كالَّذي يَدفَعُ الأمواجَ العاتية بصدره، وهو إلى الهلاك أَقربُ منه إلى النَّجاة.

اللَّهُمَّ اهد شبابَنا، وقوِّ عزائمَهم في الخير، واصْرِفْهم عن الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وأَصلِحْ بهم ما فَسدَ من الأخلاق وما ضاع من الدِّين.

وصلَّى الله على نبيِّه الأمين، وآله وصَحبِه أجمعين.



قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ...

براءةٌ من الشِّرك

حسن بوقليل

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (4) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾

[سُورَةُ الكَافِرُونَ]

◎ من لازم التَّوحيد البراءة من الشِّرك:

إنَّ من لازم «لا إله إلَّا الله» البراءةَ من الشِّرك وأهله(1)، ولذا قال الله تعالى عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)﴾ [سُورَةُ الزُّخْرُفِ]، فتبرَّأ من شركهم، ووصفه الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، فتبرَّأ من الشِّرك وأهله.

⌑ ⌑ ⌑

◎ سورة الكافرون براءة من الشِّرك:

وقد جاءت نصوصٌ كثيرة فيها البراءة من الشِّرك وأهله؛ ومن ذلك «سورة الكافرون»، وهي ستُّ آيات مكيَّة نزلت في قريش لمَّا طلبت من النَّبيِّ ﷺ أن يعبُدَ ربَّهم عامًا، فيعبُدوا ربَّه عامًا؛ فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (4) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)﴾ [سُورَةُ الكَافِرُونَ].

⌑ ⌑ ⌑

◎ أسماؤها ومعاني ذلك:

وتُسمَّى «سورة الإخلاص»؛ لأنَّ من اعتقد ما فيها كان مؤمنًا مخلصًا بريئًا

(1) انظر: «باب تفسير التَّوحيد وشهادة أن لا إله إلَّا الله» من «تيسير العزيز الحميد» (1/281 وما بعدها).

من كلِّ شرك، وكلِّ كفر[2].

وتُسمَّى «المُقَشقِشَة»؛ لأنَّها تُبرئ من النِّفاق والشِّرك، كما يبرأ المريض من علَّته[3]؛ «فإنَّ الشِّرك والكفر أعظم أمراض القلوب، فأمرَ المؤمنُ بقول يوجب في قلبه من البراءة من الشِّرك ما لم يكن في قلبه قبل ذلك، وكلَّما قاله ازداد براءةً من الشِّرك، وقلبُه شفاءً من المرض»[4].

⌑ ⌑ ⌑

سبب نزولها:

قد اشتهر عند أكثر المفسرين في سبب نزولها: أنَّ قريشًا أشارت على النَّبيِّ ﷺ أن يعبد آلهتها عامًا فيعبدوا إلهه عامًا؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه السُّورة[5].

فلم يرض النَّبيُّ ﷺ بالتَّقارب الدِّيني، ولا وحدة الأديان، وهذه هي البراءة الَّتي تستلزمها كلمة التَّوحيد.

⌑ ⌑ ⌑

لماذا كانت براءة من الشِّرك؟:

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرها: «يقول تعالى ذكره لنبيِّه محمَّد ﷺ ـ وكان المشركون من قومه فيما ذكر عرضوا عليه أن يعبدوا الله سَنةً، على أن يعبد نبيُّ الله ﷺ آلهتهم سنة، فأنزل الله مُعرِّفَه جوابهم في ذلك ـ: قل يا محمَّد! لهؤلاء المشركين الَّذين سألوك عن عبادة آلهتهم سَنة، على أن يعبدوا إلهك سنةً: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١﴾ بالله، ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢﴾ من الآلهة والأوثان الآن، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ٣﴾ الآن، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ﴾ فيما أستقبل ﴿مَّا عَبَدتُّمْ ٤﴾ فيما مضى، ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ﴾ فيما تستقبلون أبدًا، ﴿مَآ أَعْبُدُ ٥﴾ أنا الآن وفيما أستقبل»[6].

ففيها براءته ﷺ من عبادة أوثانهم، وبراءتهم من عبادة الله، وهذا في الحال، ثمَّ براءته ﷺ من عبادة أوثانهم، وبراءتهم من عبادة الله في المآل[7].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «هذه السُّورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار:

ـ أحدهما: براءته من معبودهم، وبراءتهم من معبوده، وهذا لازمٌ أبدًا.

ـ الثَّاني: إخباره بأنَّ له دينه ولهم دينهم»[8].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيها التَّوحيد القَصدي العمليُّ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢﴾ [سُورَةُ الكَافِرُونَ]، وبهذا يتميَّزُ من يعبد الله ممَّن يعبُد غيرَه، وإن كان كلاهما يقرُّ بأنَّ الله ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، ويتميَّز عبادُ الله المخلصون الَّذين لم يعبُدوا إلاَّ إيَّاه، ممَّن عبد غيرَه، وأشرك به، أو نظر إلى القدر الشَّامل لكلِّ شيء، فسوَّى بين المؤمنين والكفَّار، كما كان يفعل المشركون من العرب، ولهذا قال ﷺ: «إنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّركِ»»[9].

⌑ ⌑ ⌑

بعض ما ورد في فضلها:

1. أنَّها تعدل ربع القرآن:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تَعدِلُ رُبعَ القُرآنِ»[10].

2. الشَّهادة لصاحبها بالبراءة من الشِّرك:

عن مهاجر أبي الحسن، عن شيخ أدرك النَّبيَّ ﷺ قال: خرجت مع النَّبيِّ ﷺ في سفر فمرَّ برجل يقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، قال: «أَمَّا هَذَا فَقَد بَرِئَ مِنَ الشِّرك»، قال: وإذا آخر يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سُورَةُ الإِخلَاصِ]، فقال النَّبيُّ ﷺ: «بِهَا وَجَبَت لَهُ الجَنَّةُ»[11].

وفي رواية النَّسائي: «فَقَد غُفِرَ لَهُ»[12].

عن فروة بن نوفل عن أبيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «اقْرَأْ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرك»[13].

3. الشَّهادة لصاحبها بالتَّوحيد:

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنَّ رجلاً قام، فركع ركعتي الفجر؛ فقرأ في الرَّكعة الأولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، حتَّى انقضت السُّورة، فقال النَّبيُّ ﷺ: «هَذَا عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ»، وقرأ في الآخرة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حتَّى انقضت السُّورة، فقال رسولُ الله ﷺ: «هَذَا عَبْدٌ آمَنَ بِرَبِّهِ».

فقال طلحة ـ الرَّاوي عن جابر ـ: فأنا أستحبُّ أن أقرأ بهاتين السُّورَتين في

---

(2) «نظم الدُّرر في تناسب الآيات السُّور» للبقاعي (300/22).

(3) «النِّهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (741 ـ قشقش)، وذهب البقاعيُّ إلى غير هذا، كما في (300/22).

(4) «المجموع» لشيخ الإسلام (560/16).

(5) «اللُّباب في أسباب النُّزول» للسُّيوطي (310).

(6) «جامع البيان» (702/24).

(7) «المجموع» لشيخ الإسلام (547/16).

(8) «بدائع الفوائد» (135/1).

(9) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (394/1).

(10) «الصَّحيحة» (586).

(11) رواه أحمد في «المسند» (16605).

(12) «فضائل القرآن» للنَّسائي (97).

(13) رواه أحمد في «مسنده» (23697)، وأبو داود (5055)، والنَّسائي في «الكبرى» (10570)، وغيرهم، وانظر: «الصَّحيحة» (938/6).

هاتَين الرَّكعتَين[14].

4. أنَّ فيها الخيرَ الكثير:

عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: «من قرأ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ليلة فقد أكثر وأطاب»[15].

وهذه لعلَّها من الأذكار المهجورة عند النوم!!

⌑ ⌑ ⌑

◎ ولهذه الفضائل والمعاني كان النَّبيُّ ﷺ يقرؤها في ليله ونهاره:

⌑ فكان النَّبيُّ ﷺ يفتَتح نهارَه بالتَّوحيد؛ فيقرأ بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتَي الفَجر، وهي أوَّل ما يصلِّي المسلم في نهاره.

وهذا يدلنا على فضل التَّوحيد وأهمِّيَّته؛ إذ حرص النَّبيُّ ﷺ على قراءة سورتي الإخلاص.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رمَقتُ النَّبيَّ ﷺ شهرًا، فكان يقرأ في الرَّكعتَين قبل الفَجر بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[16].

وعن غنيم بن قيس رحمه الله قال: كنَّا نُؤمَر أن ننابِذ الشَّيطان في الرَّكعتَين قبل الصُّبح، أو قبل الغَداة بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[17].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «نعمَت السُّورَتَان يُقرَأُ بهمَا في ركعتَين قَبلَ الفَجر ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾»[18].

⌑ وكان ﷺ يختم مساءه بالتَّوحيد؛ فيقرأ بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الرَّكعتين بعد المغرب[19].

⌑ وكذلك كان ﷺ يختم ليله بالتَّوحيد؛ فيقرأ بهما في صلاة الوتر، الَّتي هي آخر صلاة باللَّيل، كما قال ﷺ: «اجْعَلُوا آخِرَ صَلاَتِكُم باللَّيلِ وِترًا»[20]، فكان النَّبيُّ ﷺ يقرأُ في الرَّكعة الأولى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانية ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[21].

⌑ وكان يقرأ في الرَّكعتين الخفيفتين بعد الوتر بـ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[22].

⌑ وكان ﷺ يقرأ بها في ركعتي الطَّواف؛ كما في حديث جابر رضي الله عنه الطَّويل في صفة حجَّة النَّبيِّ ﷺ، وفيه: كان رسولُ الله ﷺ يقرَأُ في الرَّكعتَين بـ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[23].

⌑ وكان ﷺ يرقي بها من لدغة العقرب؛ فعن عليٍّ رضي الله عنه قال: لدَغَت النَّبيَّ ﷺ عقرَبٌ وهو يصلِّي، فلمَّا فرَغَ قال: «لَعَنَ اللهُ العَقرَبَ لاَ تَدَعُ مُصَلِّيًا وَلاَ غَيرَهُ»؛ ثُمَّ دعا بماء وملح، وجعَلَ يمسَحُ عليهَا ويقرأ بـ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[24].

من تأمَّل هذه النُّصوص علم قدر التَّوحيد وفضله، وعلم فضل سورة الكافرون، لما فيها من التَّوحيد القصدي العمليِّ، والبراءة من الشِّرك وأهله، ورفض المساومة على توحيد الله عزَّ وجلَّ.

فحريٌّ بالمسلم أن يعتني بهذه السُّورة العظيمة، الَّتي قلَّت آياتها، وعظم مدلولها.

والحمد لله أوَّلاً وآخرًا، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

⌑ ⌑ ⌑



---

(14) رواه ابن حبَّان في «صحيحه» (2460)، وصحَّحه الإمام الألباني في «التَّعليقات الحسان» (4/199).
(15) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (264).
(16) رواه أحمد (5691) وابن حبَّان في «صحيحه» (2459)، وصحَّحه الإمام الألباني في «التَّعليقات الحسان» (4/199).
(17) رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (6395).
(18) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (1114)، وابن حبَّان في «صحيحه» (2461)، وصحَّحه الإمام الألباني في «الصَّحيحة» (646).
(19) قد سبق في قول ابن عمر رضي الله عنهما: رَمَقت النَّبيَّ ﷺ شهرًا، وانظر «الصَّحيحة» (3328).
(20) رواه البخاري (472)، ومسلم (751).
(21) انظر: «صفة الصَّلاة» (2/539 ـ الأصل).
(22) انظر: «صفة الصَّلاة» (2/544 ـ الأصل).
(23) رواه أبو داود (1905)، وابن ماجه (3074 ـ مشهور)، وابن حبَّان (3944)، وقد خرَّجه الإمام الألباني في كتابه «حجَّة النَّبيِّ ﷺ كما رواها جابر رضي الله عنه».
(24) انظر: «الصَّحيحة» (548).



الاقتصـــاد في شـرائع الإســـلام

عبد المجيد تالي
ليسانس في علوم الشريعة الإسلامية ـ الجزائر

لـمَّا كان من طبيعة البشـر ـ وبالأخصِّ الأحـداث[1] ـ الاندفـاعُ إلى العمـل مـع شـدَّةِ النَّشـاطِ إليـه، وقد يكـون ذلك في غالبِ الأحايينِ من غير ضـوابطَ شـرعيَّةٍ ولا أصـولٍ مرعيَّـة تكون نتائـج وآثار تلك الأعمـال غيرَ حميـدة، وفي الأثر عن عبدِ اللَّه بـن عمرو، قال: قال رسـولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ لكُلِّ عَمَلٍ شـرَّةً[2]، ولكُلِّ شرَّة فَتْرَةٌ[3]، فمَنْ كانتْ فترته إلى سُنَّتي فقد أفْلَحَ، ومَنْ كانتْ فترته إلى غيرِ ذلك فقد هَلَكَ»[4].

جـاءت الوصـايةُ بـ: قاعـدةِ الدِّينِ، والمنهجِ القويمِ في هذا البابِ العظيم: «اكْلَفُـوا من العمـلِ ما تُطيقُـونَ، وإنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللَّه أدْوَمُها وإنْ قَلَّ».

⌑ ⌑ ⌑

(1) الأحداث: جمع الحَدَث، والحَدَثُ من الرِّجال ـ بفتح الحاء والدَّال ـ: طَرِيُّ السِّنِّ، انظر: «مقاييس اللُّغة» (2/ 36).

(2) الشِّرَّةُ: النشاط والرغبة.

(3) الفَتْرَةُ: الكسل والضعف والسكون.

(4) رواه أحمد (6764).

فعـن عائشـة رضي الله عنها، أنَّها قالت: سُـئِلَ النَّبيُّ ﷺ:

أيُّ الأعمال أحبُّ إلى اللَّه؟

قال: «**أدْوَمُها وإنْ قَلَّ**»

وقـال: «**اكْلُفُوا مـن الأعْمَالِ مـا تُطيقُونَ**»[5].

وفي رواية:

«**اكْلُفُوا مـنَ العمل مـا تُطيقُونَ، فـإنَّ اللَّه لا يَمَـلُّ حتَّـى تَمَلُّـوا، وإنَّ أحَـبَّ العَمَـلِ إلى اللَّه أدْوَمُـه، وإنْ قَلَّ**».

وكان إذا عَمِلَ عملاً أثبتَه[6].

سبب ورود الحديث

أوَّلاً: عن أبي سلمة ـ ابن عبد الرَّحمن ـ، عـن عائشـة، أنَّهـا قالت: كان لرسـول اللَّه ﷺ حَصـيرٌ، وكان يُحَجِّـرُه من اللَّيلِ فيصلِّـي فيـه، فجعـلَ النَّـاسُ يصلُّـون بصـلاته، ويَبْسُـطُه بالنَّهـار، فثَابُوا ذاتَ ليلـةٍ، فقال: «يَـا أيُّهَـا النَّـاسُ عَلَيْكُم مِنَ الأعْمَـالِ ما تُطيقُونَ، فإنَّ اللَّه لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا، وإنَّ أحَبَّ الأعْمَالِ إلى اللَّه مَا دُووِمَ عَلَيْـه، وإنْ قـلَّ»، وكان آلُ مُحَمَّـدٍ ﷺ إذا عَمِلُوا عملاً أثبتُوه[7].

وفي روايـة: قالـت: كان لرسـول اللَّه ﷺ حصـيرةٌ يبسُـطها ـ تعنـي بالنَّهـار ـ ويَحْتَجِـزُ[8] بهـا باللَّيـل، فيصلِّـي فيهـا، فَفَطِنَ له النَّاسُ فَصَلَّوْا بصـلاته، وبينَه وبينَهـم الحَصـيرَةُ فقـال: «اكْلَفُـوا مـنَ العَمَـلِ مَـا تُطِيقُونَ؛ فَـإنَّ اللَّه لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّـوا، فإنَّ أحَـبَّ العَمَـلِ إلى اللَّه أدْوَمُهُ، وإنْ قَـلَّ» ثمَّ ترك مُصَـلَّاهُ ذلـك فَمَا عادَ لَـه حتَّى قَبَضَـه اللَّه، وكان إذا عملَ عملاً أثبتَه[9].

ثانيًا: عـن عائشـة رضي الله عنها قالت: دخل علـيَّ رسـولُ اللَّه ﷺ وعنـدي امـرأةٌ[10] فقـال: «مَنْ هَـذِه؟» فقلتُ: امـرأةٌ لا تنام

(5) البخاري (6465)، ومسلم (783) واللفظ الأول له.

(6) أبو داود (1368)، وأحمد (23597).

(7) خرجه البخاري (730 و5861)، مسلم (782) واللفظ له.

(8) أي: يستتر بها عن غيره، وفي الأولى: يُحَجِّرُه: أي: يتخذُها كالحجرة، لئلا يمرَّ عليه مارٌّ، ويتوفرَ خشوعه.

(9) النسائي في «الكبرى» (823).

(10) وهي: الحولاء بنت تُوَيْت رضي الله عنها.

تُصلِّي قال: «عَلَيْكُم منَ العَمَلِ مَا تُطيقُونَ، فـوالله لاَ يَمَلُّ الله حَتَّـى تَمَلُّوا» وكان أحبُّ الدِّين إليه ما دَاوَمَ عليه صاحبُه[11].

وفي لفظ للبخاري «مَـهْ، عَلَيْكُم بما تُطيقُونَ، فوالله لاَ يَمَلُّ الله حتَّى تَمَلُّوا».

ثالثًا: عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال: نَهَى عن الوصَال، قالُوا: إنَّك تُوَاصـلُ، قال: «إنِّي لَسْتُ مثْلَكُم، إنِّي أَظَلُّ عنْدَ رَبِّي، يُطْعمُني ويَسْـقيني، اكْلَفُوا منَ الأَعْمَالِ ما تُطيقُونَ»[12].

■ فقه الحديث ■

فهذه الأحاديثُ تَرسُمُ لنا هَديًا قويمًا ومنهجًا نبويًّا عامًّا في تعبُّده ﷺ وتعامله مع شرائع الدِّين، ونصحًا منه ﷺ وحرصًا على أتباعه من أُمَّته أنْ يأخذُوا أنفسَهم بالاقتصاد في العبادة وأنْ لا يجهدُوها بما لا طاقةَ لهم به:

فأوَّل ذلك: أنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى ثُمَّ إلى رسوله ﷺ الدَّائمُ المستمرُّ.

وفي حديثنا: «وإنَّ أَحَبَّ العَمَلِ إلى الله أَدْوَمُهُ، وإنْ قَلَّ»، وسئل النَّبيُّ ﷺ عن أحبِّ الأعمال فقال: «أَدْوَمُهَا وإنْ قَلَّ».

وخرَّج البخاري (6461) عن مسروق قال: سألتُ عائشة ﵂: أيُّ العملِ كان أحبَّ إلى النَّبيِّ ﷺ؟ قالت: «الدَّائمُ».

وله (6462) عنها ﵂ أنَّها قالت: «كان أحبُّ العمل إلى رسول الله ﷺ الَّذي يدُوم عليه صاحبُه».

بل عدَّ ﷺ ذلك من خير العمل؛ كما في حديث أبي هريرة ﵁: «فإنَّ خَيْرَ العَمَلِ أَدْوَمُهُ، وإنْ قَلَّ».

¤ ¤ ¤

(11) البخاري (1151 معلقا)، ومسلم (785) واللفظ له.
(12) أحمد (10225)، وأبو يعلى الموصلي في «مسنده» (5952).

◎ **قوله: «وإنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إلى الله مَا دَامَ»** أي: استمرَّ في حياة العامل، وليس حقيقةَ الدَّوام الَّتي هي: شُمُولُ جميع الأزمنة، ووقع في رواية الكُشْميهَنيِّ[13]: «ما دَاوَمَ» أي: ما داوم عليه العامل[14].

وثاني ذلك: أنَّه ﷺ كان إذا عمل عملاً أثبتَه وداوم عليه، وكان هذا هديُ آل بيته ﷺ.

فللحُمَيْدي وابن خُزَيْمَةَ عنها ﵂: «وكان إذا صلَّى صلاةً أثبتَها».

وفي «الصَّحيحَيْن» من حديثها ﵂: «وكان آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ إذا عَمِلُوا عملاً أثبتُوه».

قال النَّووي ﵀: «أي: لازمُوه وداومُوا عليه، والظَّاهر أنَّ المرادَ بالآل هنا: أهلُ بيته وخواصُّه ﷺ من أزواجه وقرابَته ونَحوهم ﵃ أجمعين»[15].

وفي رواية مسلم (783) من حديثها ﵂: قال - أي: القاسم بن محمَّد -: وكانت عائشة إذا عملت العملَ لَزِمَتْه.

وثالثه: أنَّ على النَّاسك المتعبِّد أنْ يَكْلَفَ ويَلْزَمَ من العملِ ما يُطيقَ ولا يجهدَ نفسَه طاقتَها.

قال ﷺ: «اكْلَفُوا منَ الأَعْمَالِ مَا تُطيقُونَ»، وفي رواية: «منَ العمل»، وقال ﷺ: «يا أيُّها النَّاسُ عَلَيْكُم منَ الأعمالِ ما تُطيقُونَ».

¤ ¤ ¤

◎ **وقوله «اكْلَفُوا»** هو بفتح اللاَّم وبضمِّها، يُقَال: كَلِفْتُ بهذا الأمر أكلَفُ به إذا وَلِعْتُ به وأحببتُه وكَلِفْتُه إذا

(13) أبو الهيثم محمَّد بن مكي (389هـ) الإمام المحدث أحد رواة «الصحيح» عن الفِرَبْري أبو عبدالله محمد بن يوسف (320هـ).
(14) أفاده الحافظ «الفتح» (13/ 351).
(15) «المنهاج» (6/ 82).

تحمَّلتُه[16]، أي: حملتُه على مشقَّة.

قال ابنُ فارس: «الكاف واللاَّم والفاء، أصلٌ صحيح يدلُّ على إيلاع بالشَّيء وتعلُّق به، من ذلك الكَلَفُ، تقول: قد كَلِفَ بالأمر يَكْلَفُ كَلَفًا، ويقولون: «لا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا، ولا بُغْضُكَ تَلَفًا» اهـ[17].

والمراد به: الإبلاغُ بالشَّيء إلى غايته، يُقَالُ: كلفتُ بالشَّيء إذا أُولِعْتُ به، اسْتُعيرَ للعمل للالتزام والملابسة...

والحكمَةُ في ذلك: أنَّ المُديمَ للعَمَلِ يلازمُ الخدمةَ فيُكثرُ التَّردُّدَ إلى باب الطَّاعة كلَّ وقت ليجازى بالبرِّ لكثرة التَّردُّد، فليس هو كمَن لازم الخدمةَ مثلاً ثمَّ انقطع، وأيضًا: فالعامل إذا ترك العملَ صار كالمُعرِض بعد الوَصل فيتَعرَّضُ للذَّمِّ والجفاء، ومن ثَمَّ ورد الوعيد في حقِّ من حفظ القرآن ثمَّ نسيَه تهاونًا.

والمرادُ بالعمل هنا: الصَّلاةُ والصِّيامُ وغيرُهما من العبادات.

فالحديث وإن كان سببُه خاصًّا - إذ هو في الصَّلاة والصَّوم - غيرَ أنَّ لفظَه عامٌّ فالعبرةُ إذن بعمومه لا بخصوص سَببِه كما هي القاعدةُ عند أهلِ العلم[18].

¤ ¤ ¤

◎ **وقولُه «مَا تُطيقُونَ»** أي: قَدْرَ طاقتكم، هو من قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16].

والحاصلُ: أنَّه أمرَ بالجِدِّ في العبادة والإبلاغ بها إلى حدِّ النِّهاية، لكن بقيد ما لا تقعُ معه المشَقَّةُ المُفضيَةُ إلى السَّآمة والملال[19].

(16) «التَّنوير شرح الجامع الصغير» (3/ 79).
(17) «معجم مقاييس اللُّغة» (5/ 136).
(18) انظر: «الفتح» (1/ 187).
(19) أفاده في «الفتح» (14/ 602-603).

وقال أبو العبَّاس القرطبي رحمه الله:

قولُـه ﷺ «عَلَيْكُـمْ مِـنَ الأَعْمَـالِ مَـا تُطيقُـونَ»: «هذا حَضٌّ علـى التَّخفيف في أعمـالِ النَّوافـلِ، ويتضـمَّنُ الزَّجـرَ عـن التَّشديدِ، والغُلُوِّ فيها.

وسـببُ ذلـك: أنَّ التَّخفيـفَ يكـون معـه الـدَّوامُ والنَّشـاطُ، فيكـثُرُ الثَّوابُ لتكـرار العَمـلِ، وفـراغ القلـبِ، بخلاف الشَّـاقِّ منهـا، فإنَّه يكون معه التَّشـويشُ والانقطاعُ غالبًا» اهـ[20].

وقال النَّووي رحمه الله:

«فيه: دليلٌ على الحثِّ على الاقتصـاد في العبـادة، واجتنـابِ التَّعمُّـق، وليس الحديثُ مُختَصًّا بالصَّلاة، بل هو عامٌّ في جميع أعمالِ البرِّ» اهـ[21].

¤ ¤ ¤

◎ **إفادة:**

فالحديـثُ مَنطُوقُه الأمرُ بالاقتصـار علـى مـا يُطـاقُ مـن العبـادة، ومَفهُومُه يَقتَضِـي النَّهـيَ عـن تَكلُّـفِ مـا لا يُطَاقُ منها[22].

¤ ¤ ¤

◎ **وفي الحديـث: «فـإنَّ اللّه لا يَملُّ، حتَّى تَملُّوا».**

وهـذا كالتَّعليـلِ لمـا سـبق، مضـارعُ «مَلَّ»، يقال: مَلِلْتُـهُ و(مَلِلْتُ) منه (مَلَلاً) و(مَلاَلَـةً) بمعنـى: سـئِمتُ وضـجِرتُ، والفاعـل (مَلُولٌ) ويتعدَّى بالهمزة فيُقَال: (أَمْلَلْتُهُ) الشَّيءَ[23].

وفي روايةٍ وهي لمسـلم: «لا يَسْـأَمُ اللّه حتَّى تَسْأَمُوا»، وهما بمعنى.

(20) «المفهم» (2/ 413).
(21) «المنهاج» (6/ 81).
(22) انظر: «الفتح» (1/ 187).
(23) انظر: «المصباح المنير» (2/ 797)، و«البحر المحيط الثجاج» (16/ 176).

ومعنـاه: «أنَّ اللّه ـ عزَّ وجـلَّ ـ يُعطيكُم من الثَّوابِ بقَدرِ عملكم، مهما داومتُم من العمل فإنَّ اللّه تعالى يُثيبُكم عليه»[24].

ووجه ذلـك: أنَّه لمَّا قـال: «عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَـالِ مَا تُطيقُونَ» خشـي أن يَظُنَّ أحدٌ أنَّ هـذا لاقتصـار فضـلِ اللّه ـ عـزَّ وجلَّ ـ أو لقصـوره، وأنَّ اللّهَ تعـالى يَمـلُّ بكـثرة الثَّـوابِ، فبيَّن: أنَّ اللّهَ تعـالى لا يملُّ حتَّى يمـلَّ الإنسـان، وليس هذا تشـجيعًا على كثرة العمل؛ بل هو دَفـعٌ للإيهام؛ إذ ربَّما توهَّـم مُتَوَهِّـمٌ أنَّ اللّه غيرُ قـادرٍ على أن يُثِيبَنا؛ فأجاب بهذه الجملـة؛ لئلاَّ يَتَوهَّمَ واهِمٌ ما لا يليقُ به تعالى[25].

وأمَّـا المَلَلُ المُضـافُ إلى اللّه تعالى في الحديث: فممَّا اختلَفَ فيه قولُ أهلِ العلم بين مُثبِت له صفةً للّه تعالى أو مُتأوِّلٍ أو نافٍ.

فقال بعضُـهم: إنَّه لا يـدُلُّ على إثباتِ المَلَـلِ، وإنَّمـا هو مـن جنسِ قـولِ القائل: فلان لا ينقطعُ حتَّى ينقطعَ خصـومُه، لأنَّ معناه: لا ينقطع إذا انقطع خصـومُه، ولو كان معناه: ينقطع إذا انقطع خصـومُه لم يكن له فضلٌ على غيره.

وقـال بعضُـهم: إنَّـه يدُلُّ علـى إثباتِ المَلَلِ، وتأوَّلَه بقطـعِ الثَّواب، أي: أنَّ اللّه لا يقطع الثَّوابَ حتَّى تقطعوا العملَ، ففسّروا اللَّفظ بـ: لازمه، أي: بأَثَرِه وَثَمَرَته.

وهذا بنـاءً على أصـلهم: مـن أنّ كلَّ نصٍّ أوهم النَّقصَ في ذات اللّه ـ عزَّ وجلَّ ـ أو صفاته يجب تأويلُه.

وقـال بعضُـهم: إنَّـه يدلُّ علـى إثباتِ المَلَلِ صـفةً للّه تعالى في مُقابِـل مَللِ العَبدِ من العمـل بسـببِ تَكلُّفِـه وإشـقَاقِه على نفسـه، لكن: مللُ اللّه ليس كملل المخلوق؛ إذ إنَّ ملـلَ المخلوق نقصٌ؛ لأنَّه يدلُّ على سآمَته وَضَـجَره من هذا الشَّيء، أمَّا مَللُ اللّه فهـو كمالٌ وليس فيـه نقصٌ، ويجري هذا كسائر الصِّـفاتِ الَّتي نُثبِتُها للّه على وجـهِ الكمـال وإن كانـت في حـقِّ المخلوقِ

(24) أفاده الشيخ ابنُ عثيمين رحمه الله في «شرح رياض الصالحين» (2/213).
(25) أفاده الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في «التعليق على صحيح مسلم» (4/276)، بتصرف يسير.



ليسَتْ كمَالاً.

وهـذا القـولُ: أقـربُ إلى مذهـبِ السَّـلف - رحمهـم الله تعـالى - أنَّه يُجرى الحديثُ علـى ظاهـره[26]، وقد يقـال إنَّ القاعدة في ذلك: «أنَّ بابَ الأفعال أَوْسَـعُ من باب الصِّـفات» فقـد يُطلَقُ ويُضـافُ إلى الله - عـزَّ وجلَّ - فِعلٌ، ولا يُضَـافُ إليهِ الصِّـفَةُ، ومن فُـرُوع ذلك ما وَصـفَ الله بـه نفسَـه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سُورَةُ الأَنفَالِ]، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، ونحـو ذلك ممّا جاء مُقيَّدًا بالفعـل، ولم يُذكَـرْ صِـفةً بالاسـم، فهذا يُقَالُ فيه: يُطلَقُ مُقيَّدًا.

فالأفعالُ إذا كانت تَنقَسـمُ إلى محمود ومذموم ما نَشتَقُّ منها صفةَ كمالٍ مُطلَقًا، بل تُطلَقُ هذه الصِّفاتُ مُقيَّدةً؛ لأنَّ هذه الأفعالَ ليسـت كمالاً في كلِّ حالٍ، بل قد تكون كمالاً وقد تكون نقصًا؛ فتكون كمالاً إذا كانت بحقٍّ، وتكون نقصًا إذا كانت بباطل[27].

⌑ ⌑ ⌑

◎ ومن جميل كلام أهل العلم في هذا الأصل:

○ قول الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ:

«المراد بهـذا الحديث: الاقتصـادُ في العمل والأخذُ منه بما يتمكَّنُ صـاحبُه من المداومة عليه، وأنَّ أحبَّ العملِ إلى الله ما دام صاحبُه عليه وإن قلَّ.

وكذلـك كان حالُ النَّبيِّ ﷺ كان عملُه دِيمَةً، وكان إذا عمل عملاً أثبتَه، وقد كان ينهـى عن قطـع العمـل وتركه، كمـا قال لعبـد الله بـن عمـرو: «لا تَكُنْ مثـلَ فلان كان يقـومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَـامَ اللَّيْل»، وقولُه «إنَّ الله لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا»، وفي رواية: «لا يَسْأَمُ حتَّى تَسْـأَمُوا»، المَلَلُ والسَّآمةُ للعمل يوجبُ قَطعَه وتَركَه، فإذا سـأم العبدُ من العمل وملَّـه قَطَعَه وتَرَكَـه فقَطَعَ الله عنه ثوابَ ذلك العمل؛ فـإنَّ العبدَ إنَّما يُجازَى بعَملـه، فمن ترَكَ عملَـه انقطَعَ عنه ثوابُه وأجرُه إذا كان قطعُه لغير عذر من مرض أو سفر أو هَرَم»، كما قال الحَسَنُ: «إنَّ دُورَ الجنَّة تَبنيها الملائكةُ بالذِّكر، فإذا افتَر العبدُ انقطعَ المَلَكُ عن البناء فتقول له الملائكةُ: ما شأنُك يا فلان؟ فيقول: إنَّ صاحبي فتَر»، قال الحسن: «أَمِدُّوهم - رحمَكُمُ الله - بالنَّفقة».

وأيضًـا فإنَّ دوامَ العمل وإيصالَه ربَّما حصـلَ للعبـد به في عملـه الماضـي ما لا يحصـل له فيه عند قطعه؛ فإنَّ الله يحبُّ مواصـلةَ العمـل ومداومتَـه، ويُجزي على دوامه ما لا يُجزي على المنقطع منه.

وقد صـحَّ هذا المعنى في الدُّعـاء وأنَّ العبدَ يُستَجَاب له ما لم يَعجَلْ فيقول: «قد دعـوتُ فلم يُسْـتَجَبْ لي، فَيَـدَعُ الدُّعَاءَ»، فدلَّ هـذا على أنَّ العبـدَ إذا أدامَ الدُّعاءَ وألَـحَّ فيـه أُجيـبَ، وإن قطعه واستحسـرَ مُنِعَ إجابتَه وسـمِّيَ هذا المنعُ من الله مَلَلاً وسـآمةً مقابلـةً للعبد على مللِه وسـآمته، كمـا قـال تعـالى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التَّوبَة : 67] فسَـمَّى إهمالَهـم وتركَهم نسيانًا مقابلةً لنسيانهم له، هذا أظهر ما قيل في هذا»[28].

○ وقول النَّووي رَحِمَهُ اللهُ:

«وفي هـذا الحديـث: كمـال شـفقته ﷺ ورأفتـه بأمَّتـه؛ لأنَّه أَرشَـدَهم إلى ما يُصـلِحُهم، وهو ما يُمكِنُهم الـدَّوامُ عليه بلا مَشـقَّةٍ ولا ضرر، فتكون النَّفسُ أنشطَ والقلبُ مُنشَـرِحًا فتتمُّ العبـادةُ، بخلاف مـن تعاطى مـن الأعمـالِ ما يشـقُّ، فإنَّه بصـددِ أن يتركَه كلَّـه أو بعضَـه أو يفعلَه بكلفـةٍ وبغير انشـراح القلـب فيفوتُه خيرٌ عظيـمٌ، وقد ذمَّ الله سـبحانه وتعالى من اعتـادَ عبـادةً ثم فَـرَّطَ فقـال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحَدِيد : 27]، وقـد نَدمَ عبـدُ الله ابنُ عمرو بن العاص على تركه قبولَ رخصـةِ رسول الله ﷺ في تخفيف العبادةِ ومجانبةِ التَّشديد» اهـ[29].

⌑ ⌑ ⌑

◎ ومـن أجـل تحقيـق هـذا المقصد:

كان النَّبيُّ ﷺ يُرشـدُ صـحابته رضي الله عنهم إلى التَّخفيـفِ في أعمـال النَّوافِـل، وتركِ الغلوِّ والمبالغة في ذلك، ولزوم الاقتصـادِ في السُّنَّة.

⌑ فعن أنس بن مالك قال:

دخل رسـولُ الله ﷺ المسـجدَ، وحبلٌ ممـدودٌ بين سـاريتَيْن، فقال: «مَـا هَذَا؟» قالوا: لزينب تصلِّي، فإذا كَسِلَتْ - أو فَتَرَتْ - أمسـكتْ به، فقال: «حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَـاطَهُ، فَـإِذَا كَسِـلَ - أو فَـتَرَ - قَعَدَ»، وفي حديث زُهيْر - ابن حرب -: «فَلْيَقْعُدْ»[30].

⌑ وعن عائشـة؛ أَنَّ النَّبـيَّ ﷺ قال: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُـمْ فِي الصَّـلاَة، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَـبَ عَنْهُ النَّومُ؛ فَـإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وهُـوَ نَاعِسٌ، لعلَّـه يَذْهَبُ يَسْـتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَه»[31].

---

(26) انظر لذلك: «مجموعة دروس وفتاوى الحرم» (1/ 152)، و«شرح رياض الصالحين» (2/ 213)، و«التعليق على صحيح مسلم» (4/ 276 - 277) للشيخ ابن عثيمين، و«إجابات الشيخ البراك على أسئلة ملتقى أهل الحديث»، و«التعليق على القواعد المثلى» له (ص171).

(27) انظر لذلك: «الأجوبة والبحوث والمدارسات» صالح آل الشيخ (1/ 240).

(28) «فتح الباري» (1/ 165 - 166) وما بعدها.

(29) «المنهاج» (6/ 81 - 82).

(30) البخاري (1150)، ومسلم (784).

(31) البخاري (212)، ومسلم (786)..

⌑ وعنها رضي الله عنها قالتْ:

دخلتْ عليَّ خُوَيْلَةُ بنتُ حكيم بن أُمَيَّة ابن حارثة بن الأوقص السُّلَمِيَّة وكانت عند عثمان بن مَظعُون قالت: فرأى رسولُ اللهِ ﷺ بَذَاذَةَ هَيْئَتِهَا، فقال لي: «يا عَائِشَةُ، مَا أَبَذَّ هَيْئَةَ خُوَيْلَةَ؟» قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله، امرأةٌ لا زوجَ لها؛ يصومُ النَّهارَ، ويقومُ اللَّيلَ، فهي كمَنْ لا زَوْجَ لها، فتَرَكَتْ نفسَها وأضاعتْها، قالت: فبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى عثمانَ بن مَظعُون فجاءَه، فقال: «يا عُثْمَانُ، أَرَغْبَةٌ عَنْ سُنَّتِي؟» قال: فقال: لا واللهِ يا رسولَ الله، ولكن سُنَّتَك أَطلُبُ، قال: «فَإِنِّي أَنَامُ وأُصَلِّي، وأَصُومُ وأُفْطِرُ، وأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فاتَّقِ اللهَ يَا عُثْمَانُ؛ فَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وإِنَّ لنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وأَفْطِرْ، وصَلِّ ونَمْ»[32].

وبنحو هذا وقع للصَّحابيَّيْن الجليلَيْن سلمان الفارسي وأبي الدَّرداء رضي الله عنهما، كما خرَّجه البخاري (1968)، والتِّرمذي (2413)، وابن خزيمة (2144).

⌑ ورسم لنا ﷺ في ذلك منهجًا عامًّا في شرائع الدِّين:

⌑ فعن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحدٌ إِلَّا غَلَبَه، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا، واسْتَعِينُوا بالغُدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ»[33].

فقوله: «لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحدٌ» معناه: أنَّ الدِّين لا يؤخذُ بالمغالبة، فمن شَادَّ الدِّين غلبَه وقطعَه[34]، يُوضِّحُه ما بعدَه.

⌑ فعن أنسِ بنِ مالك قال:

(32) أحمد (26308)، وأبو داود (1369).
(33) البخاري (39).
(34) انظر «فتح الباري» لابن رجب (1/ 149).

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فيه بِرِفْقٍ» رواه أحمد (13052).

«مَتِينٌ» أي: شديدٌ صلبٌ «فَأَوْغِلُوا فيه» أي: سِيرُوا «برِفْقٍ» من غير تَكلُّف ولا تَحمِّلُوا أَنفُسَكم ما لا طاقةَ لها به، والإيغالُ كما في «النِّهاية»: «السَّيرُ الشَّديدُ، والوغول: الدُّخول في الشَّيء»[35].

⌑ ⌑ ⌑

◎ أنموذج لهذه التَّوجيهاتِ النَّبويَّةِ:

فعن عبدِ اللهِ بن بُسرٍ، أنَّ أعرابيًّا قال لرسولِ اللهِ ﷺ: إنَّ شرائعَ الإسلام قد كَثُرَتْ عليَّ، فأَنْبِئْنِي منها بشيءٍ أَتَشَبَّثُ به قال:

«لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ» رواه أحمد، والتِّرمذي، وابنُ ماجه.

قولُه: «إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلَامِ»: قال القاري: «الظَّاهِرُ أنَّ المرادَ بها ههنا: النَّوافلُ لقوله «قد كثرت عليَّ» بضمِّ المُثلَّثة ويُفتح أي: غلبتْ عليَّ بالكثرةِ حتَّى عَجَزْتُ عنها لضَعفي» اهـ.

قوله «فأخبرني بشيءٍ» قال الطِّيبي: «التَّنكير في «بشيء» للقليل المُتضمِّن لمعنى التَّعظيم كقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72] ومعناه: أخبرني بشيء يسيرٍ مُستجلبٍ لثواب كثير» انتهى.

قولُه «أَتَشَبَّثُ به» أي: أتعلَّق به وأعتصم وأستمسك.

قوله «لا يَزَالُ لسانُك رَطْبًا من ذكر الله»: أي: طريًّا مُشتغلاً قريبَ العهد منه، وهو كنايةٌ عن المداومة على الذِّكر[36].

وختاما:

فعن الحسن قال: «نُفُوسُكُم مطايَاكم؛ فأصلحُوا مطايَاكم تُبْلِغُكم إلى ربِّكم ـ عزَّ وجلَّ ـ»[37]، والله أعلم.

⌑ ⌑ ⌑

(35) انظر: «التنوير شرح الجامع الصغير» (4/ 143).

(36) «مرعاة المفاتيح» (7/ 413).
(37) ذكره الحافظ ابن رجب في «فتح الباري» (1/ 140).



رؤيـــة المـؤمنين ربَّـهم يـوم القيامة

د/ رضا بوشامة
أستاذ الحديث. الجزائر

إنَّ ممَّا يُفرح المؤمن ويزيده ثباتًا على إيمانه وعقيدته ما ينتظره من الفوز العظيم في جنَّات النَّعيم.

وأعظمُ فوز يناله بعد دخول الجنَّة أن يرى ربَّه عيانًا كما يرى القَمَرَيْن، وهو «الغاية الَّتي شمَّر إليها المشمِّرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنَّة نسُوا ما هم فيه من النَّعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشدُّ عليهم من عذاب الجحيم...»[1].

وقد دلَّت أدلَّة كثيرة من الكتاب والسُّنَّة وأقوال السَّلف الصَّالح من الصَّحابة ومن تبعهم بإحسان على هذه المسألة العظيمة الَّتي لم يخالف فيها إلاَّ أهل البدع من المعتزلة والخوارج، والأشاعرة.

وسأتناول ذكر تلك المذاهب، مع تفنيد الشُّبهات الَّتي استند إليها المنكرون والمتأوِّلون.

¤ ¤ ¤

(1) «حادي الأرواح» (2/ 605).

■ المذهب الأوَّل:

وهو مذهب أهل السُّنَّة من الصَّحابة ومن تبعهم بإحسان: الإقرار والإيمان والاعتقاد الجازم بأنَّ المؤمنين يَرون ربَّهم يوم القيامة.

وقد دلَّت على ذلك أدلَّة كثيرة من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسنَّة رسوله ﷺ وأقوال الصَّحابة الكرام، وكذا من تبعهم من الأئمَّة الرَّبَّانيِّين.

◎ أدلَّة القرآن على إثبات الرُّؤية:

وأدلَّة القرآن على ذلك كثيرة، وسنكتفي بذكر بعضها، مع ذكر غيرها عند ردِّ كلام المنكرين للرُّؤية لاستدلالهم ببعض الآيات الَّتي هي حجَّة عليهم، لا لَهُم.

○ الدَّليل الأوَّل:

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سُورَةُ القِيَامَةِ].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ من النَّضارة، أي حَسَنَةٌ بَهِيَّة مشرقة مسرورة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عيانًا، كما رواه البخاري رَحِمَهُ اللهُ في «صحيحه»: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا»، وقد ثبت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجلَّ في الدَّار الآخرة في الأحاديث الصِّحاح، من طرق متواترة عند أئمَّة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها»[2].

وأورد القاضي عياض عن ابن نافع وأشهب ـ وأحدهما يزيد على الآخر ـ قالا: يا أبا عبد الله! ـ أي الإمام مالك ـ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ ينظرون إلى الله؟!

قال: نعم بأعينهم هاتين، فقلت له: فإنَّ قومًا يقولون لا يُنظر إلى الله، إنَّ «ناظرة» بمعنى منتظرة إلى الثَّواب، قال: كذبوا؛ بل يُنظر إلى الله، أمَا سمعتَ قول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]، أفترى موسى سأل ربه محالاً؟ فقال الله: ﴿لَن تَرَانِي﴾ أي في الدُّنيا؛ لأنَّها دار فناء، ولا ينظر ما يبقى بما يفنى، فإذا صاروا إلى دار البقاء نظروا بما بقي إلى ما بقي»[3].

○ الدَّليل الثَّاني:

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سُورَةُ المُطَفِّفِينَ].

فلمَّا أثبت الحجاب عنه للكفَّار؛ دلَّ ذلك على أنَّ غير الكفَّار لا يحجبون عنه، بل يرونه عيانًا ويتلذَّذون برؤيته سبحانه.

(2) «تفسير القرآن العظيم» (14/ 198).
(3) «ترتيب المدارك» (1/ 52).

قال الإمام الشَّافعي رحمه الله: «فلمَّا حجبهم في السَّخط؛ كان هذا دليلاً على أنَّهم يرونه في الرِّضا»[4].

وقال ابن حجر: «وقد أخرج أبو العبَّاس السَّرَّاج في «تاريخه» عن الحسن ابن عبد العزيز الجروي. وهو من شيوخ البخاري. سمعت عمرو بن أبي سَلَمَة يقول: سمعتُ مالكَ بنَ أنس، وقيل له: يا أبا عبد الله! قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، يقول قوم: إلى ثوابه؟ فقال: كذَبُوا! فأين هُمْ عن قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟!»[5].

قال ابن عبد البرِّ رحمه الله: «وإنَّما يحتجب الله عن أعدائه المكذِّبين، ويتجلَّى لأوليائه المؤمنين، وهذا معنى قول مالك في تفسير هذه الآية»[6].

○ الدَّليل الثَّالث:

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26].

وسيأتي حديث صُهَيْب الرُّومي في تفسير النَّبيِّ ﷺ لهذه الآية، وهو أعلم النَّاس بمراد الله تعالى وكلامه، وكذا جاء عن عدد من الصَّحابة تفسيرُ الزِّيادة بالنَّظر إليه سبحانه، فالله تعالى لمَّا عطف الزِّيادة على الحسنى الَّتي هي الجنَّة؛ دلَّ على أنَّها أمرٌ آخر زائدٌ على الجنَّة، وهو النَّظر إليه سبحانه.

○ الدَّليل الرَّابع:

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة ق].

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: «يقول: وعندنا لهم على ما أعطيناهم من هذه الكرامة الَّتي وصف. جلَّ ثناؤه. صفتَها «مزيد» يزيدُهم إيَّاه، وقيل: إنَّ ذلك المزيد النَّظر إلى وجه الله جلَّ جلاله...».

ثمَّ ذكر من قال ذلك من المفسِّرين من السَّلف رحمهم الله[7].

◎ الأدلَّة من السُّنَّة:

والأدلَّة على ذلك كثيرة جدًّا:

○ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ أُناسًا في زمن النَّبيِّ ﷺ قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ قال النَّبيُّ ﷺ: «نَعَمْ، هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ، ضَوءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟»، قالوا: لا، قال: «وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ضَوءٌ لَيْسَ فِيهَا سَحَابٌ؟»، قالوا: لا، قال النَّبيُّ ﷺ: «مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللهِ. عزَّ وجلَّ. يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا...» الحديث مطوَّلاً[8].

وأخرجه البخاريُّ عن أبي هريرة[9]، وجرير بن عبد الله[10].

○ وعن أبي موسى الأشعري، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[11].

○ وعن صُهيب عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عز وجل، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»[12].

فهذه الأحاديث الَّتي تنصُّ وتدلُّ على ذلك دلالة واضحة في أنَّ المؤمنين سيرون ربَّهم يوم القيامة، وقد بلغت مبلغ التَّواتر، وصنَّف أهلُ السُّنَّة في بيانها عدَّةَ مصنَّفات، قال الإمام يحيى بن معين: «عندي سبعة عشر حديثًا في الرُّؤية كلُّها صحاح»[13].

وقال اللالَّكائي: «فتحصل في الباب ممَّن روى عن رسول الله ﷺ من الصَّحابة حديث الرُّؤية ثلاث وعشرون نفسًا؛ منهم عليٌّ، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وجرير، وأبو موسى، وصهيب، وجابر، وابن عبَّاس، وابن عمر، وأنس، وعمَّار بن ياسر، وأُبَيُّ بن كعب، وابن مسعود، وزيد ابن ثابت، وحذيفة، وعُبادة، وأبو أُمامة، وعَدِي بن حاتم، وأبو رَزين العقيلي، وكعب بن عجرة، وفضالة ابن عُبيد، وبريدة، ورجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ»[14].

◎ وأمَّا من قال ذلك من السَّلف؛

فخلائق لا يُحصون، من الصَّحابة وتابعيهم والأئمَّة المتبوعين وغيرهم، قال الإمام الدَّارمي: «فهذه الأحاديث كلّها وأكثر منها قد رويت في الرُّؤية على تصديقها والإيمان بها أدركنا أهلَ الفقه والبَصر من مشايخنا، ولم يزل المسلمون قديمًا وحديثًا يَرْوُونَها ويؤمنون بها، لا يستنكرونها ولا ينكرونها، ومن أنكرها من أهل الزَّيغ نسبوه إلى الضَّلال، بل

---

(4) «الاعتقاد» للبيهقي (ص144).
(5) «فتح الباري» (17/ 430).
(6) «التَّمهيد» (7/ 253. موسوعة شروح الموطأ).
(7) «جامع البيان» (21/ 454).
(8) أخرجه البخاري (4581، 7439)، ومسلم (182)، وأحمد (11533).
(9) «صحيح البخاري» (6573، 7437).
(10) «صحيح البخاري» (7434، 7435، 7436).
(11) أخرجه البخاري (7444)، ومسلم (180)، وأحمد (19682).
(12) أخرجه مسلم في «صحيحه» (181)، وأحمد في «المسند» (18935).
(13) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (2/ 365).
(14) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة» (2/ 366).

كان من أكبر رجائهم وأجزل ثواب الله في أنفسهم النَّظر إلى وجه خالقهم، حتَّى ما يعدلون به شيئًا من نعيم الجنَّة»[15].

وقال عكرمـة في تأويل قوله ـ عـزَّ وجلَّ ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾، «ناضـرة» من النَّعيم، «ناظرة» قال: تنظر إلى ربِّها ـ جلَّ وعلا ـ نظرًا.

وبنحو ذلك قال أئمَّة التَّفسير.

وقال سعيد بن المسيِّب في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قـال: «الزِّيادة: النَّظر إلى وجه الله».

والأقـوال في ذلـك كثيرة جـدًّا، أوردَ الكثير منها الإمـام ابن القيِّـم في كتابه الماتع «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح»[16].

⌑ ومـن المصـنَّفات الَّتـي أفردهـا السَّلف في بيان أحاديث الرُّؤية وتواترها:

ـ كتـاب الإمـام أحمد بـن حنبل، قال ولـده عبـد الله: «رأيتُ أبي رَحِمَهُ اللهُ يُصـحِّح الأحاديـث الَّتـي تُـروى عـن النَّبيِّ ﷺ في الرُّؤية ويذهب إليها، وجمعها أبي رَحِمَهُ اللهُ في كتاب وحدَّثنا بها»[17].

ـ وكذلـك مـا صـنَّفه أبـو الحسـن الأشعري، قال: «وألَّفنا كتابًا في جواز رؤية الله بالأبصار، نقضنا فيه جميع اعتلالات المعتزلة في نفيها وإنكارها وإبطالها»[18].

وقال أيضًـا: «وألَّفنا كتابًـا في الرُّؤية، نقضـنـا به اعتراضـات اعترض بها علينا الجبائي في مواضع متفرِّقة من كتب جمعها محمَّـد ابن عمر الصَّـيمري وحكاها عنه، فأبنَّا عن فسادها وأوضحناه وكشفناه»[19].

ـ وممَّـن صـنَّف في ذلـك ـ أيضًـا ـ الإمام محمَّد بن وضَّـاح القرطبي المالكي (287هـ) كتابًـا سـمَّاه: «مـا جـاء من الحديث في النَّظر إلى الله تبارك وتعالى».

وصـنَّف ـ أيضًـا ـ الإمـام الدَّارقطني «كتاب الرُّؤية».

وغيرهم مـن أهـل العلم والسُّـنَّة في بيـان الأحاديث والآثـار المتواترة في رؤيته ـ تبارك وتعالى ـ.

■ **أقوال المخالفين:**

اختلفتْ آراؤهم في مسألة رؤية المؤمن لربِّـه يـوم القيامـة؛ من بين نـافٍ منكر، ومثبت مأوِّل.

وتقدَّم قول أهل السُّنَّة والجماعة أنَّهم أثبتوا رُؤية الله حقيقةً.

■ **المذهـب الثَّـاني ـ مذهـب الجهميَّة والمعتزلة والإباضيَّة:**

ذهبـت الجهميَّـة والمعتزلـة إلى نفي الرُّؤيـة، وقالـوا: بـأنَّ الله لا يُـرى يـوم القيامة على مذهبهم في نَفْي صـفات الله تعـالى، وكذا الجهـة والتَّحيُّـز، فجعلوها أصـلَ دينهـم، فـكان إنـكار الرُّؤيـة من اللَّوازم الَّتـي التزموها من طرد مقدِّمات فاسدة عقلاً وشرعًا.

واستدلُّـوا علـى إنـكار الرُّؤيـة بأدلَّـة مـن القرآن ـ حسـب فَهْمِهـمْ ـ وهي حجَّة عليهم لا لَهُم.

○ الدَّليل الأوَّل:

قـول الله تعـالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [سُورَةُ الأَنْعَام].

قال الزَّمخشريُّ: «فالمعنى أنَّ الأبصار لا تتعلَّـق به ولا تدركه؛ لأنَّه متعال أن يكون مُبْصَـرًا في ذاته؛ لأنَّ الأبصار إنَّما تتعلَّق بما كان في جهة أصلاً أو تابعًا، كالأجسام والهيآت»[20].



○ والـرَّدُّ على هذه الشُّبهة أن يُقال: إنَّ معنـى الإدراك في الآية أعمُّ من مجرَّد النَّظـر، والإدراك هنـا بمعنـى الإحاطة، والعرب تقول: رأيتُ الشَّيءَ وما أدركته.

قال ابن حزم الأندلسي: «واحتجَّت المعتزلة بقول الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾.

قـال أبـو محمَّـد: هـذا لا حجَّـة لهم فيـه؛ لأنَّ الله تعـالى إنَّما نفـى الإدراك، والإدراك عندنـا في اللُّغة معنى زائد على النَّظر والرُّؤية وهـو معنى الإحاطة وليس هـذا المعنى في النَّظـر والرُّؤية، فالإدراك منفـيٌّ عـن الله تعـالى علـى كلِّ حـال في الدُّنيـا والآخرة، برهانُ ذلك قول الله عز وجـل: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاء]، ففرَّق الله عز وجل بين الإدراك والرُّؤية فرقًا جليًّا؛ لأنَّه تعالى أثبت الرُّؤيـة بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾، وأخـبر تعـالى أنَّـه رأى بعضُـهم بعضًـا،

(15) «الرَّدُّ على الجهميَّة» (ص122).
(16) انظر: (2/ 692. 710).
(17) «السُّنَّة» لعبد الله (1/ 229).
(18) «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر (ص129).
(19) «تبيين كذب المفتري» (ص134).
(20) «تفسير الكشَّاف» (2/ 383).



فصحَّت منهم الرُّؤيا لبني إسرائيل، ونفى اللَّه الإدراكَ بقول موسى ﷺ لهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾.

فأخبر اللَّه تعالى أنَّه رأى أصحابُ فرعون بني إسرائيل ولم يدركوهم، و[لا] شكَّ في أنَّ ما نفاه اللَّه تعالى فهو غير الَّذي أثبته، فالإدراكُ غير الرُّؤية، والحجَّة لقولنا هو قول اللَّه - عزَّ وجلَّ -: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (٢٣)﴾»[21].

وقال ابن القيِّم: «فالرُّؤية والإدراك كلٌّ منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرَّبُّ - تعالى - يُرى ولا يُدرك، كما يُعلم ولا يُحاط به، وهذا هو الَّذي فهمته الصَّحابة والأئمَّة من الآية، قال ابن عبَّاس ﷺ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: لا تحيط به الأبصار، وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار، وقال عطيَّة: ينظرون إلى اللَّه ولا تحيط أبصارُهم به من عظمته، وبصرُه يحيط بهم، فذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾، فالمؤمنون يرون ربَّهم - تبارك وتعالى - بأبصارهم عيانًا، ولا تدركه أبصارُهم، بمعنى أنَّها لا تحيط به؛ إذ كان غير جائز أن يُوصف اللَّه - عزَّ وجلَّ - بأنَّ شيئًا يحيط به، وهو بكلِّ شيء محيط، وهكذا يُسمِعُ كلامَه من يشاء من خلقه ولا يحيطون بكلامه، وهكذا يُعلِّم الخلق ما علَّمهم ولا يحيطون بعلمه...

وتأمَّل حُسن هذه المقابلة لفظًا ومعنى، وبين قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾، فإنَّه - سبحانه - لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، ولُطفه وخبرته يُدرك الأبصار، فلا تخفى عليه، فهو العظيم في لطفه، اللَّطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوِّه، الَّذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (١١)﴾ [سُورَةُ الشُّورَىٰ]، ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ (١٠٣)﴾»[22].

الدَّليل الثَّاني:

قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٤٣)﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ].

قال الزَّمخشري: «فإن قُلْتَ: ما معنى ﴿لَن﴾؟ قلتُ: تأكيدُ النَّفي الَّذي تعطيه «لا»، وذلك أنَّ «لا» تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غدًا، فإذا أكَّدت نفيها قلتَ: لن أفعل غدًا، والمعنى: أنَّ فعلَه ينافي حالي، كقوله: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [سُورَةُ الحَجِّ]، فقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، نفيٌ للرُّؤية فيما يستقبل، و﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؛ تأكيد وبيان؛ لأنَّ المنفيَّ مناف لصفاته.

فإن قلتَ: كيف اتَّصل الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ بما قبله؟ قلت: اتَّصل به على معنى أنَّ النَّظر إليَّ محالٌ فلا تطلبه، ولكن عليك بنظرٍ آخر: وهو أنْ تنظر إلى الجبل الَّذي يرجف بك وبمن طلبت الرُّؤية لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أجعله دكًّا بسبب طلبك الرُّؤية؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنَّه - عزَّ وعلا - حقَّق عند طلب الرُّؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه في قوله: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (٩١)﴾ [سُورَةُ مَرۡيَمَ]»[23].

ورِدَّ أئمَّة اللُّغة ما ادَّعاه الزَّمخشري من أنَّ «لن» تفيد تأكيد النَّفي وتأبيده، قال ابن هشام: «ولا تفيد «لن» توكيدَ النَّفي خلافًا للزَّمخشري في «كشَّافه»، ولا تأبيدَه خلافًا له في «أنموذجه»، وكلاهما دعوى بلا دليل، قيل: ولو كانت للتَّأبيد لم يُقيَّد مَنفيُّها باليوم في: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا (٢٦)﴾ [سُورَةُ مَرۡيَمَ]، ولكان ذكرُ الأبد في: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدٗا﴾ تكرارًا، والأصل عدمه»[24].

ويقول ابن مالك في «الكافية» وشرحها:

ومن رَأى النَّفي بـ (لن) مؤبَّدَا
فقولَه ارْدُد وخلافَه اعضُدَا

ثمَّ قال: «ثمَّ أشرتُ إلى ضعف قول مَن رأى تأبيدَ النَّفي بـ«لن» وهو الزَّمخشري في «أنموذجه»، وحاملُه على ذلك اعتقادُه أنَّ اللَّه تعالى لا يُرى، وهو

(21) «الفصل في الملل والأهواء والنِّحل» (3/ 8).

(22) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (2/ 621-622).

(23) «الكشَّاف» (2/ 504).

(24) «مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب» (3/ 504).

اعتقاد باطل؛ بصحَّة ذلك عن رسول الله ﷺ أعني ثبوت الرُّؤية، جعلنا الله من أهلها، وأعاذنا من عدم الإيمان بها»[25].

بل هذه الآية ـ الَّتي استدلَّ بها المعتزلة ـ من أدلَّة أهل السُّنَّة على ثبوت الرُّؤية وإمكانها؛ لأنَّ الله لم يُنكر على موسى عليه السلام سؤاله الرُّؤية، وحاشاه أن يسأل ربَّه ما لا يجوز، وهو أعلم بربِّه وكليمه ونجيِّه.

قال ابن عبد البرِّ: «وفي قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ دلالة واضحة لمن أراد الله هُداه، أنَّه يُرى إذا شاء، ولم يشأ ذلك في الدُّنيا بقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: 103]، وقد شاء ذلك في الجنَّة بقوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾، ولو كان لا يراه أهل الجنَّة لما قال: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾، وفي هذا بيانٌ أنَّه لا يُرى في الدُّنيا؛ لأنَّ أبصار الخلائق لم تُعطَ في الدُّنيا تلك القوَّة، والدَّليل على أنَّه ممكنٌ أن يُرى في الآخرة شَرْطُه في الرُّؤية ما يُمكن، من استقرار الجبل، ولا يستحيلُ وقوعُه ولو كان محالاً كون الرُّؤية لقيَّدها بما يستحيل وجودُه، كما فعل بدخول الكافرين الجنَّة، قُيِّد قبل ذلك بما يستحيل من دخول الجمل في سَمِّ الخياط، ولا يشُكُّ مسلمٌ أنَّ موسى كان عارفًا بربِّه وما يجوز عليه، فلو كان عنده مستحيلاً لم يسأله ذلك، ولكان بسؤاله إيَّاه كافرًا، كما لو سأله أن يتَّخذ شريكًا أو صاحبة، وإذا امتنَع أن يُرى في الدُّنيا بما ذكرنا، لم يكن لقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ وجهٌ إلاَّ النَّظرَ إليه في القيامة، على ما جاء في الآثار الصِّحاح عن النَّبيِّ ﷺ وأصحابه وأهل اللِّسان»[26].

(25) «شرح الكافية» (3/ 1515، 1531).

(26) «التَّمهيد» (7/ 152، 153). =

○ الدَّليل الثَّالث:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشورى].

قال الزَّمخشري: «﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحَّ لأحد من البشر ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا﴾ على ثلاثة أوجه: إمَّا على طريق الوحي؛ وهو الإلهام والقذف في القلب، أو المنام... وإمَّا على أن يُسمعه كلامَه الَّذي يخلقه في بعض الأجرام، من غير أن يبصر السَّامع من يكلِّمه؛ لأنَّه في ذاته غير مرئي، وقوله: ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ مثل أي، كما يكلِّم الملك المحتجب بعض خواصِّه وهو من وراء الحجاب، فيسمع صوته ولا يرى شخصه»[27].

○ وليس في الآية ما يدلُّ على دعواهم؛ لأنَّها وردت في بيان طريقة وصول الوحي إلى من شاء الله في الدُّنيا، وهي طرق ثلاثة، وليس فيها نفي الرُّؤية بوجه من الوجوه.

ثمَّ إنَّ من صحَّ أن يكلِّمه الله من غير واسطة كموسى عليه السلام فالرُّؤية جائزة من باب أولى، لكن المعتزلة ينفون الرُّؤية وينفون التَّكليم، ويقولون: إنَّ الله خلق الكلام في الشَّجرة، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

○ هذه بعض الآيات الَّتي استدلَّ بها نفاة الرُّؤية، وهي لا تدلُّ على مبتغاهم، بل هي حجج عليهم، وردَّ المعتزلة هذه الحجج بتأويل الرُّؤية بأنَّها معرفة الرَّبِّ والعلم به، وهذا لا شكَّ في بطلانه، إذ يستوي المؤمنون والكافرون يوم القيامة في معرفة الرَّبِّ وأنَّه حقٌّ، ولا ينفع الكافر يومئذ إيمانه، ولا يكون للمؤمن في ذلك أيُّ مزيَّة، بل كيف يسأل الصَّحابة شيئًا هم به عارفون في الدُّنيا وبه معتقدون[28].

= وذكر ابن القيِّم في «حادي الأرواح» (2/ 606ـ608)، وابن أبي العزِّ الحنفي في «شرحه للعقيدة الطَّحاوية» (ص206 ـ 207)، عدَّة أوجه للاستدلال بهذه الآية الكريمة ـ الَّتي استدلَّ بها المعتزلة ـ على جواز رؤية الله تعالى.

(27) «الكشَّاف» (5/ 420).

■ المذهب الثَّالث:

كان الخلاف في مسألة الرُّؤية دائرًا بين أهل السُّنَّة والجماعة وبين الجهميَّة المعتزلة، فالأوَّلون أثبتوا الرُّؤية بالأبصار كما تقدَّم في الآيات والأحاديث الصَّحيحة وبعض أقاويل السَّلف، وأنكرها المعتزلة وقالوا: يرونه بأبصار قلوبهم، فجعلوا الرُّؤية علميَّة لا بصريَّة، ثمَّ جاءت الأشاعرة والماتريديَّة: فاخترعوا قولاً لم يسبقهم أحد إليه، فأثبتوا الرُّؤية؛ لكن إلى غير جهة، فالله تعالى عندهم يُرى، لكن يراه المؤمنون إلى غير جهة، ولا مسافة ولا مقابلة ولا مدابرة!

قال أبو منصور الماتريدي: «فإن قيل: كيف يُرى؟ قيل: بلا كيف، إذ الكيفيَّة تكون لذي صورة، بل يُرى بلا وصف قيام وقعود واتِّكاء وتعلُّق واتِّصال وانفصال ومقابلة ومدابرة وقصير وطويل ونور وظلمة وساكن ومتحرِّك ومماس ومباين وخارج وداخل، ولا معنى يأخذه الوهم أو يقدره العقل لتعاليه عن ذلك»[29].

وقال عمر النَّسفي والتَّفتازاني الحنفي: «فيُرى لا في مكان ولا على جهة من مقابلة واتِّصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرَّائي وبين الله تعالى»[30].

فالأشاعرة والماتريديَّة يثبتون الرُّؤية؛

(28) انظر إبطال هذا التَّأويل في كتاب: «ردّ الإمام الدَّارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد» (ص56ـ57).

(29) «التَّوحيد» له (ص85).

(30) «شرح العقائد النَّسفيَّة» (ص196).

لكـن لا يثبتون الجهة، وينفون أن يكون الله يـراه المؤمنـون وهو في علوِّه سـبحانه، وردَّ أهل السُّنَّة على مذهب الأشاعرة وبيَّنوا أنَّ قول من قال: إنَّه يُرى إلى غير جهة مخالف للنُّصـوص الصَّـريحة، والعقل الصَّحيح، والفطرة السَّـليمة، وقولهم لا يقرُّه نقلٌ ولا عقلٌ، وهو مـن المحالات والممتنعـات؛ لأنَّه ينفـي - أيضًـا - علوَّ الله تعـالى على خلقه، وهم في ذلك مساندون للمعتزلة.

قال ابـن أبي العـزِّ الحنفـي: «وليس تشـبيه رؤيـة الله تعـالى برؤية الشَّـمس والقمر تشـبيهًا لله، بل هو تشـبيه الرُّؤية بالرُّؤيـة، لا تشبيه المرئـيِّ بالمرئيِّ، ولكن فيه دليلٌ على علوِّ الله على خلقه، وإلاَّ فهل تعقـل رؤيةٌ بلا مقابلة؟ ومـن قال: يُرى لا في جهـة، فليراجـع عقله!! فإمَّـا أن يكون مكابـرًا لعقله أو في عقله شـيءٌ، وإلاَّ فإذا قـال: يُرى لا أمام الرَّائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، ردَّ عليه كلُّ مَنْ سمعه بفطرته السَّليمة.

ولهـذا ألـزم المعتزلـةُ من نفَـى العلوَّ بالذَّات بنفـي الرُّؤية، وقالـوا: كيف تُعقل رؤيةٌ بغير جهة.

وإنَّما لم نره في الدُّنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرُّؤية، فهذه الشَّـمس إذا حدَّق الرَّائـي البصـر في شـعاعها ضـعف عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئيِّ، بل لعجز الرَّائـي، فإذا كان في الـدَّار الآخرة أكْمَلَ الله قوى الآدميِّين حتَّى أطاقوا رؤيته»[31].

وقولهـم - الماتريديَّـة والأشـاعرة - مخالـف لجميـع النُّصـوص الـواردة في إثبات رؤية الله بالأبصار عيانًا، ومخالف للنُّصـوص الواردة في علوِّ الله على خلقه، ورؤيـة المؤمنـين ربَّهم يـوم القيامة تكون إلى جهـة، وهذا وارد مـن وجوه كثيرة في النُّصـوص النَّبويَّة والآثار السَّـلفيَّة، وقد قرَّر ذلك شيخ الإسـلام من أوجهٍ كثيرة، ولولا خشية الإطالة لذكرتها[32].

وقال أيضًـا: «إنَّ الَّذين قالوا: إنَّ الله يُرى بلا مقابلـة؛ هم الَّذين قالوا: إنَّ الله ليس فوق العالم، فلمَّا كانوا مثبتين للرُّؤية نافين للعلوِّ احتاجوا إلى الجمع بين هاتين المسـألتين، وهذا قول طائفة من الكلابيَّة والأشـعريَّة، وليس هو قولهـم كلِّهم... ولا ريْـبَ أنَّ جمهور العقلاء من مثبتي الرُّؤية ونفاتهـا يقولـون: إنَّ هـذا القـول معلوم الفسـاد بالضَّـرورة، ولهذا يذكر الرَّازي أنَّ جميع فرق الأمَّة تخالفهم في ذلك»[33].

ثـمَّ إنَّ مـن قال بنفـي الرُّؤيـة أو قال بإثباتهـا لكـن إلى غـير جهـة؛ مخالـف لأقـوال الصَّـحابة والتَّابعـين والأئمَّـة المرضـيِّين، فقد صـحَّت النُّصوص عنهم في إثبات ذلك.

قـال ابن تيميـة: «وإن كان الصَّـواب هو ما عليه السَّـلف وأئمَّة السُّنَّة، وهو قول الأئمَّـة الأربعة وجمهور كبار أصـحابهم، والنُّصـوص المأثـورة في ذلك عـن الأئمَّة المذكوريـن في غير هذا الموضـع، والبيان التَّـام هو ما بيَّنه الرَّسـول ﷺ، فإنَّه أعلم الخلـق بالحـقِّ، وأنصـح الخلـق للخلق، وأفصح الخلق في بيان الحقِّ، فما بيَّنه من أسمائه وصفاته وعلوِّه ورؤيته هو الغاية في هذا الباب، والله الموفِّق للصَّواب»[34].

وقال الإمام ابن القيِّم: «قد دلَّ القرآن والسُّـنَّة المتواترة وإجماع الصَّحابة وأئمَّة الإسـلام وأهل الحديث عصابة الإسلام ويزك الإيمان وخاصَّة رسول الله ﷺ، على أنَّ الله - سبحانه وتعالى - يُرى يوم القيامة بالأبصار عِيانًا كما يُرى القمر ليلة البدر صـحوًا، وكما ترى الشَّـمس في الظَّهيرة، فإنْ كان لما أخبر به الله ورسـوله عنه من ذلك حقيقـة - وأنَّ له، والله حقّ الحقيقة - فلا يمكن أن يروه إلاَّ من فوقهم؛ لاستحالة أن يـروه من أسـفلَ منهـم، أو خلفهم، أو أمامهـم، أو عن يمينهم أو عن شـمالهم، وإن لم يكـن لِمَا أخبر به حقيقة - كما يقوله أفـراخ الصَّـابئة والفلاسـفة والمجوس والفرعونيَّـة - بَطَل الشَّـرع والقـرآن، فإنَّ الَّذي جـاء بهذه الأحاديث هـو الَّذي جاء بالقرآن والشَّـريعة، والَّذي بلَّغها هو الَّذي بلَّـغ الدِّين، فلا يجـوز أن يجعل كلام الله ورسوله عِضِينَ بحيث يؤمن ببعض معانيه ويكفر ببعضـها، فلا يجتمع في قلب العبد بعـد الاطِّلاع على هـذه الأحاديـث وفهم معناهـا إنكارها، والشَّـهادة بـأنَّ محمَّدًا رسـول الله أبـدًا، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ].

والمنحرفون في باب رؤية الرَّبِّ - تبارك وتعالى - نوعان:

أحدهما: مَن يزعم أنَّه يرى في الدُّنيا ويحاضر ويسامر.

والثَّـاني: مَـن يزعـم أنَّـه لا يُـرى في الآخرة البتَّة، ولا يكلِّم عبادَه.

وما أخبر الله به رسـولَه، وأجمع عليه الصَّحابة والأئمَّة يُكذِّب الفريقين، وبالله التَّوفيق»[35].

نسـأل الله الكـريم أن يجعلنـا مـن أهـل النَّظر إليه في جنَّـات النَّعيم، وأن لا يحرمنـا منـه ولا يجعلنا مـن المحجوبين عنه بفضلـه ومنِّه الكريم، والحمد لله ربِّ العالمين.

(31) «شرح العقيدة الطَّحاوية» (ص211).

(32) «بيان تلبيس الجهميَّة» (4/ 430، 444).

(33) «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة» (3/ 342، 343).

(34) «منهاج السُّنَّة» (3/ 351).

(35) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (2/ 713).



نسيم بوقرين
إمام خطيب - الجزائر العاصمة

معرفة سبيل المجرمين وسبيل المؤمنين والتمييز بينهما من العلم النافع المبين



إنَّ من العلم النَّافع العظيم معرفة سبيل المؤمنين مفصَّلة ومعرفة سبيل المجرمين مفصَّلة، وقد دلَّ على هذا الأصل كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وهو طريق الصَّحابة الأخيار ومن سار على دربهم وانتهج نهجهم.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179].

قال ابن جرير الطَّبري (7/424):

«يعني بقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ما كان الله ليدع المؤمنين «على ما أنتم عليه» من التباس المؤمن منكم بالمنافق، فلا يعرف هذا من هذا «حتَّى يميز الخبيث من الطيِّب»، يعني بذلك: «حتَّى يميز الخبيث» وهو المنافق المُستَسِرُّ للكفر، «من الطيب»، وهو المؤمن المخلص الصَّادق الإيمان، بالمحن والاختبار، كما ميَّز بينهم يوم أُحُدٍ عند لقاء العدوِّ عند خروجهم إليهم».

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ في «تفسيره» (158):

«ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط وعدم التَّميز حتَّى يميز الخبيث من الطيِّب، والمؤمن من المنافق، والصَّادق من الكاذب».



وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» (412/2):

«من سلك غير طريق الشّريعة الّتي جاء بها الرّسول ﷺ، فصار في شقٍّ والشّرع في شقٍّ، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحقّ وتبيّن له واتّضح له، وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصّفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنصّ الشّارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمّة المحمديّة، فيما عُلم اتّفاقهم عليه تحقيقًا، فإنّه قد ضُمنت لهم العصمة - في اجتماعهم - من الخطأ، تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيّهم».

✧✧✧

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ].

قال ابن جرير الطّبري رحمه الله (394/11):

«يعني تعالى ذكره بقوله: «وكذلك نفصل الآيات» وكما فصّلنا لك في هذه السّورة من ابتدائها وفاتحتها، يا محمّد، إلى هذا الموضع، حجتنا على المشركين من عبدة الأوثان، وأدلّتنا، وميّزناها لك وبيّناها، كذلك نفصّل لك أعلامنا وأدلّتنا في كلّ حقّ ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل».

✧✧✧

والشّاهد من هذه الآيات أنّ الله تعالى فصّل طريق المؤمنين لتُسلَكَ وفسّر طريق المجرمين لتُحذَرَ.

وهذا العلم الشّريف قد عرفه العالمون بالله وبأمره.

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله في كتابه القيّم «الفوائد» (ص 158):

«فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيليّة وسبيل المُجرمين معرفة تفصيليّة، فاستبانت لهم السّبيلان كما يستبين للسّالك الطّريق الموصل إلى مقصوده والطّريق الموصل إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للنّاس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة».

❋❋❋

وأمّا من السنّة:

فيدلّ على ذلك الحديث الذي رواه البخاري (3606)، ومسلم (1847) عن حذيفة رضي الله عنه قال:

«كان النّاس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنتُ أسأله عن الشرّ مخافة أن يُدركني».

فهذا حذيفة رضي الله عنه يسأل عن الشّر مخافة أن يدركه وأن يقع فيه، وهو أيضًا طريق الصّحابة رضي الله عنهم.

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله في «الفوائد» (ص158):

«وبذلك برّز الصّحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة فإنّهم نشأوا في سبيل الضّلال والكفر والشّرك والسُّبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصّلة ثمّ جاءهم الرّسول فأخرجهم من تلك الظّلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم فخرجوا من الظّلمة الشّديدة إلى النّور التّام ومن الشّرك إلى التّوحيد ومن الجهل إلى العلم ومن الغيّ إلى الرّشاد ومن الظّلم إلى العدل ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ومقدار ما كانوا فيه فإنّ الضّدّ يظهر حُسنَه الضّدُّ وإنّما تتبيّن الأشياء بأضدادها فازدادوا رغبة ومحبّة فيما انتقلوا إليه ونفرة وبغضًا لما انتقلوا عنه وكانوا أحبّ النّاس في التّوحيد والإيمان والإسلام وأبغض النّاس في ضدّه عالمين بالسّبيل على التّفصيل».



فمعرفة سبيل المؤمنين مفصّلاً، ومعرفة سبيل المجرمين على سبيل التّفصيل من العلم العظيم الّذي ينجو به العبد من الضّلال لأنّه إذا عرف الخير مفصّلاً لزمه وأحبّه وأقبل عليه، وإذا عرف الشرّ مفصّلاً حذره وحذّر منه، وأمّا من جهل الطّريقين فإنّه قد يلتبس عليه الحقّ، ويختلط عليه الأمر ولا يميّز بين السّبيلين، ومن أعظم ما يحتاجه العبد أن يرزق الفرقان في التّمييز بين الطّريقين طريق المؤمنين وطريق المجرمين.

قال ابن القيّم في «الفوائد» (ص159):

«فإنّ اللّبس إنّما يقع إذا ضعف العلم بالسّبيلين أو أحدهما... فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له أوشك أن يظنّ في بعض سبيلهم أنّها من سبيل المؤمنين كما وقع في هذه الأمّة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل، هي من سبيل المجرمين والكفّار وأعداء الرُّسل، أدخلها من لم يعرف أنّها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها وكفّر من خالفها، واستحلّ منه ما حرمه الله ورسوله كما وقع لأكثر أهل البدع من

الجهميَّة والقدريَّة والخوارج والرَّوافض وأشباههم ممَّن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفَّر من خالفها».

اتَّضح من كلام هذا الإمام أن المحدثات والبدع هي من آثار هذا الجهل وعدم التَّمييز بين السَّبيلين، وما أشبه اليوم بالبارحة، فقد ظهرت كثير من الدَّعوات الباطلة والفرق المخالفة لنهج السَّلف الصَّالح في هذا الزَّمن كفرقة الإخوان والتّبليغ وداعش والقاعدة وغيرها من الجماعات السِّياسيَّة المعاصرة الَّتي نتجت من هذا الضَّعف فاختلط عليهم سبيل المؤمنين وأدخلوا في نهجهم وطريقهم سبيل المجرمين من الكفَّار وغيرهم.

فلا بدَّ من التسلُّح بهذا العلم العظيم وخاصَّة في هذا الزَّمان الَّذي دخل على كثير من المستقيمين من الأفكار المشبوهة بسبب ضعف هذا التَّمييز، ومن إرادة الله بعبده خيرًا أن يطلعه على ما عند أهل الباطل من ضلال ومعرفة وجه مخالفة هذا الباطل لسبيل الحقّ.

قال الإمام ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ ـ معلِّقًا على حديث معاوية في «الصَّحيحين» (البخاري 71، ومسلم 1037) قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»:

«فيدخل في ذلك التفقّه في العقائد، ومعرفة مذهب السَّلف فيها، والتحقّق به ظاهرًا وباطنًا، ومعرفة مذاهب المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنَّة» [«بهجة قلوب الأبرار» (ص46)].

وفي هذا التَّقرير أبلغ ردّ على الَّذين يزهدون في الرُّدود وبيان ما عليه أهل البدع من الدَّخَن بحجَّة أنَّه من الفتن الَّتي لا يخاض فيها، وإذا بأصحاب هذا الاتِّجاه تدخل عليهم الشُّبهات الَّتي يتلقَّفونها فيصبحون حاملين للبدع مدافعين عنها واقفين في وجوه أهل الحقّ فهم دروع في وجه سهام أهل السنَّة ضدّ المبطلين.

ومن فوائد هذا العلم أنَّه يطلعك على عبوديَّة عظيمة، ويفتح عليك باب الافتقار، قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «الفوائد» (ص161): «وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلاَّ الله، من معرفة عُموم ربوبيَّته سبحانه وحكمته، وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلَّقاتها، واقتضائها لآثارها وموجباتها وذلك من أعظم الدَّلالة على ربوبيَّته وملكه وإلهيَّته، وحبِّه وبغضه وثوابه وعقابه والله أعلم».

وفي هذا الكلام أبلغ ردٍّ على الَّذين يقولون إنَّ معرفة أحوال المبطلين والاطِّلاع على باطل المناهج المنحرفة ممَّا يقسّي القلب ويَحرِفُ العبدَ عن العبوديَّة، أسأل الله أن يوفِّقنا أجمعين لما يحبُّه ويرضى إنَّه سميع مجيب.







منّة القدير بكشف شبهات الشِّيعة حول آية التَّطهير

عبد الله بوزنون
مرحلة الدكتوراه. المدية

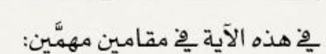
الحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وبعد:

فإنّ من الفرق الَّتي فارقت الإسلام بأصولها واعتقادها، وخالفت جماعة المسلمين، فرقة الشِّيعة الإماميَّة الاثني عشريَّة، الَّتي جعلت أصل مذهبها الإمامة والعصمة لأئمَّتهم الاثني عشر، يعرِّف الإمامة محمَّد حسين آل كاشف الغطا فيقول: «إنَّ الإمامة منصب إلهي كالنّبوَّة، فكما أنَّ الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنّبوَّة والرِّسالة ويؤيِّد بالمعجزة الَّتي هي كنصّ من الله عليه. فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيَّه بالنّصّ عليه وأن ينصِّبه إمامًا للنَّاس من بعده»[1].

والعصمة عند الإمامية هي: «أنَّ الإمام كالنَّبيّ يجب أن يكون معصومًا من جميع الرَّذائل والفواحش ما ظهر وما بطن، من سنّ الطُّفولة إلى الموت عمدًا وسهوًا، كما يجب أن يكون معصومًا من السَّهو والخطأ والنِّسيان»[2]، حتّى كفّرت من خالفها من بقيَّة الطَّوائف والفرق في هذا الأصل المزعوم، ولأجل إثباتهم لهذا الأصل تعلَّقت الشِّيعة الإماميَّة بمتشابهات من نصوص الوحيين وحرَّفت معاني آيات القرآن، واختلقت في ذلك أحاديث لا خطام لها ولا زمام[3].

ومن هذه الآيات الَّتي دندن حولها هؤلاء فاقتطعوها من سياقها وأوَّلوا ظاهرها وحرَّفوا معانيها «آية التَّطهير» وهي ما جاء في آخر قوله تعالى:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].



وفي هذا المقال أحاول أن أذكر بعض شبهاتهم في هذه الآية، ثمَّ أكرّ عليها بالتّفنيد والإبطال مستشهدًا في ذلك بأقوال العلماء المعتبرين، ويكون الكلام في هذه الآية في مقامين مهمَّين:

المقام الأوَّل: في إثبات دخول أمَّهات المؤمنين في أهل البيت في هذا التَّطهير المذكور في الآية، والمقام الثَّاني: في ردِّ زعم الشِّيعة أنَّ التَّطهير الوارد في الآية يفيد عصمة ومن ثمَّة إمامة الأئمَّة الاثني عشر، ولنشرع في الكلام على المقام الأوَّل:



المقام الأوَّل:

في دخول أزواج النَّبيِّ ﷺ في مسمَّى أهل البيت المراد بالتَّطهير وذلك لأدلَّة كثيرة.

الدَّليل الأوَّل: علَّل المثبتون لدخولهنَّ ـ رضي الله عنهنّ ـ في مسمَّى أهل البيت، بأنَّ اتِّصالهنَّ بالنَّبيِّ ثابت في حياته وبعد مماته، فهنَّ محرَّمات على غيره كما جاء

(1) «أصل الشِّيعة وأصولها» (ص219).

(2) «عقائد الإماميَّة» لمحمد رضا مظفر (ص56).

(3) يصف ابن خلدون أدلَّة الشِّيعة في الإمامة فيقول: «...بنصوص ينقلونها ويؤوِّلونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السُّنَّة ولا نقله الشَّريعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة».

«المقدِّمة» تاريخ ابن خلدون (246/1).

ذلك في القرآن، ثمَّ هذا الاتّصال باقٍ في الآخرة حيث يكنَّ زوجاته فهذا الاتّصال يقوم مقام النّسب، يقول ابن القيِّم في كتابه «جلاء الأفهام» (ص217):

«قال هؤلاء: وإنَّما دخل الأزواجُ في الآل وخصوصًا أزواجُ النَّبيِّ ﷺ تشبيهًا لذلك بالنَّسَب؛ لأنَّ اتِّصالَهُنَّ بالنَّبيِّ ﷺ غيرُ مرتفع، وهنَّ محرَّماتٌ على غيره في حياته وبعد مَمَاته، وهنَّ زوجاتُه في الدُّنيا والآخرة، فالسَّببُ الَّذي لهنَّ بالنَّبيِّ ﷺ قائمٌ مقامَ النَّسَب، وقد نصَّ النَّبيُّ ﷺ على الصَّلاةِ عليهنَّ، ...» اهـ.

والدَّليل الثَّاني: ما جاء في أحاديث كثيرة تبيِّن أنَّ الآل يدخل فيه الأزواج والذّرّيّة، من ذلك:

ما رواه البخاري (3369) ومسلم (407) عن أبي حميد السَّاعدي رضي الله عنه، أنَّهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلِّي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وأزواجه وذرِّيَّته، كما صلَّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمَّد وأزواجه وذرِّيَّته كما باركت على آل إبراهيم إنَّك حميد مجيد».

قال ابن عبد البر: «استدلَّ قوم بهذا الحديث على أنَّ آل محمَّد هم أزواجه وذرِّيَّته خاصَّة لقوله في حديث مالك عن نعيم المجمر وفي غير ما حديث اللَّهم صلِّ على محمَّد وعلى آل محمَّد، وفي هذا الحديث اللَّهمَّ صلِّ على محمَّد وأزواجه وذرِّيَّته، فقالوا هذا يفسِّر ذلك الحديث ويبيِّن أنَّ آل محمَّد هم أزواجه وذرِّيَّته»[4].

ومن الأحاديث الَّتي فيها إطلاق أهل البيت على أزواجه ما رواه البخاري (6460) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهمَّ ارزق آل محمَّد قوتًا».

قال ابن القيِّم: «ومعلوم أنَّ هذه الدَّعوة المستجابة لم تنل كلّ بني هاشم ولا بني المطَّلب لأنَّه كان فيهم الأغنياء وأصحاب الجدة وإلى الآن، وأمَّا أزواجه وذرِّيَّته ﷺ فكان رزقهم قوتًا وما كان يحصل لأزواجه بعده من الأموال كنَّ يتصدَّقن به ويجعلن رزقهنَّ قوتًا». «جلاء الافهام» (ص 216).

ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري (4793) بسنده عن أنس رضي الله عنه، قال: بني على النَّبيِّ ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطَّعام داعيًا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون،....، فخرج النَّبيُّ ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة فقال: «السَّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله»، فقالت: وعليك السَّلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك، فتقرَّى حُجَرُ نسائه كلّهنّ، يقول لهنَّ كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة».

وأمَّا الدَّليل الخاصّ المنتزع من هذه الآية فهو نزول هذه الآيات في حقِّهنَّ والسِّياق يدلُّ على ذلك.

قال ابن القيِّم: «قالوا: وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: 30]، وساق الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: 34]، ثمَّ قال: «فدخلن في أهل البيت؛ لأنَّ هذا الخطاب كلَّه في سياق ذكرهنَّ، فلا يجوز إخراجُهنَّ من شيءٍ منه، والله أعلم»[5].

وما دام أنَّ سبب نزول هذه الآيات ورد فيهنّ فيكون دخولهنّ قطعيًّا إذ صورة سبب النُّزول قطعيَّة الدُّخول كما هو مقرَّر عند المحقِّقين من علماء الأصول قال الشّنقيطي: «أمَّا الدَّليل على دخولهنَّ في الآية، فهو ما ذكرناه آنفًا من أنَّ سياق الآية صريح في أنَّها نازلة فيهنّ، والتّحقيق: أنَّ صورة سبب النُّزول قطعيَّة الدُّخول، ومن الأدلَّة على دخولهنَّ في أهل البيت[6]، ما جاء في الآية من إضافة البيوت إلى الأزواج في قوله: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ «فهذا يدلُّ على أنَّ المراد من (أهل البيت) في هذه الآية إنَّما هو الأزواج المطهَّرات، إذ بيته ﷺ لا يمكن أن يكون غير ما يسكن فيه أزواجه من البيوت»[7].

وسيأتي فيما يأتي ذكر إيرادهم على هذا الدَّليل والجواب عليه.

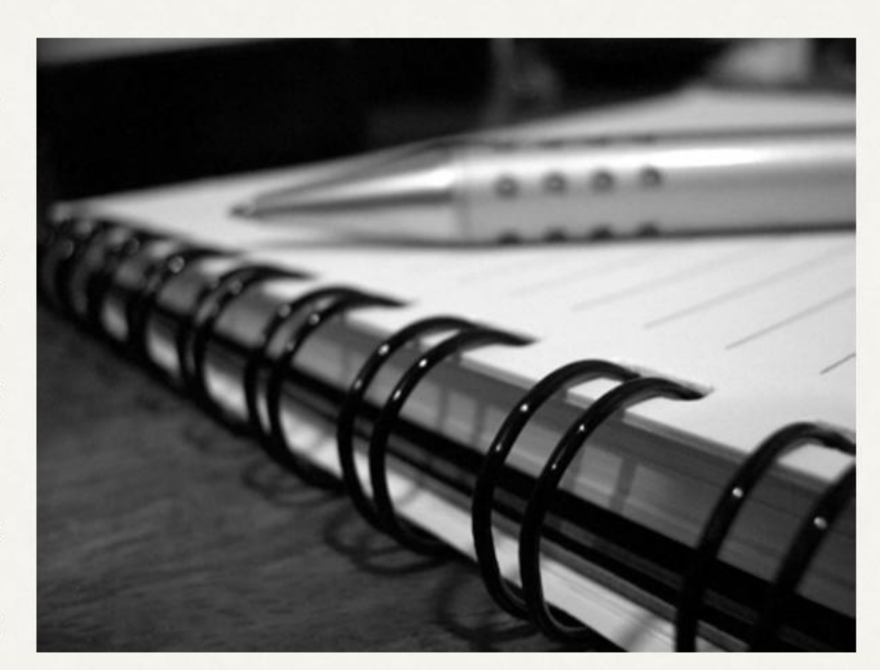


(4) «التَّمهيد» (303/17). وانظر: «الفتح» (160/11).

(5) والأمر الَّذي لا ينقضي منه العجب ما قاله المجلسي في هذا الصَّدد حيث زعم أنَّ السِّياق إنَّما دخله التَّحريف فكان التَّرتيب مدخولاً قال: «لعلَّ آية التَّطهير وضعوها في موضع زعموا أنَّها تناسبه، أو أدخلوها في سياق مخاطبة الزَّوجات لبعض مصالحهم الدُّنيويَّة، وقد ظهر من الأخبار عدم ارتباطها بقصَّتهن، فالاعتماد في هذا الباب على النظم والتَّرتيب ظاهر البطلان، ولو سلم عدم التَّغيير في التَّرتيب، فنقول: ستأتي أخبار مستفيضة بأنَّه سقط من القرآن آيات كثيرة، فلعلَّه سقط ممَّا قبل الآية وما بعدها آيات لو ثبتت لم يفت الربط الظاهري بينها» «بحار الأنوار» (234/5)، بواسطة الإمامة والنَّص (ص311).

(6) قال الألوسي: «والظَّاهر أنَّ المراد به بيت الطِّين والخشب لا بيت القرابة والنَّسب وهو بيت السّكنى لا المسجد النَّبوي كما قيل، وحينئذ فالمراد بأهله نساؤه ﷺ المطهّرات للقرائن الدَّالة على ذلك من الآيات السَّابقة واللاَّحقة مع أنَّه ﷺ ليس له بيت يسكنه سوى سكناهن»، «روح المعاني» (193/11-194).

(7) «مختصر التُّحفة الاثني عشريَّة» (ص149).
وأصل هذا الكتاب اسمه التُّحفة الاثني عشريَّة، في الرّدّ على فرق الشِّيعة الإماميَّة (لشاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي، وترجمه إلى العربيَّة غلام محمد ابن محيي الدِّين الأسلمي، واختصره وهذَّبه الألوسي الحفيد).



وبعد ذكر الحجج على إثبات دخول أمّهات المؤمنين في التّطهير المتعلّق بأهل البيت، نأتي الآن إلى عرض شُبه الشّيعة في هذا الّذي قرّره جمهور أهل السُّنة ثمَّ نفنّدها واحدة واحدة.

□ **فمن تلك الشُّبه:** تعلّقهم بحديث الكساء الّذي ظاهره أنَّ أزواج النَّبيِّ ﷺ غير داخلات في أهل البيت، وأنَّ أهل البيت محصور فيمن شمله الكساء وهم عليٌّ وفاطمة والحسن والحُسين، حيث أخرج مسلم في «صحيحه» (2424) عن عائشة قالت: خرج النَّبيُّ ﷺ غداة وعليه مرط مرحل، من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثمَّ جاء الحسين فدخل معه، ثمَّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمَّ جاء عليّ فأدخله، ثمَّ قال: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]».

وجاءت زيادة أخرجها الإمام أحمد في «مسنده» (26508) والتّرمذي في «سننه» (3205) وغيرهما من طريق أمّ سلمة حيث روت الحديث على نحو ما روته عائشة ثمَّ قالت: «فأدخلتُ رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: «إنَّك إلى خير، إنك إلى خير».

✧ **والجواب عن هذا الحديث من وجوه:**

الجواب الأوَّل أنَّ الزِّيادة الَّتي فيها رفض النَّبيِّ ﷺ إدخال أمّ سلمة في الكساء في أسانيدها متكلّم فيهم والحديث في «الصّحيح» من غير تلك الزِّيادة[8].

(8) هذا الحديث صحّحه الألباني في «صحيح سنن التّرمذي» (205/7)، ومحقّقو «المسند» (119/44) ط/ الرّسالة في حاشيتهم على المسند، لكن قد وجدت بعض الباحثين يشكّك في الزِّيادة المذكورة في الحديث من ذلك ما قاله صاحب كتاب «أبصرت الحقيقة» (ص258): «حديث الكساء المذكور قد روي بعدّة صيغ بعضها صحيح والآخر ضعيف، فروي عن جمع من الصَّحابة هم أمّ المؤمنين عائشة وأمّ المؤمنين أمّ سلمة وأبو سعيد الخدري والبراء ابن عازب وسعد بن أبي وقّاص وواثلة بن الأسقع وعبد الله ابن عبّاس وعبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ إلا أنّه لم ترد زيادة رفض النّبيّ ﷺ إدخال أمّ سلمة في الكساء إلاّ في روايات أم سلمة وأبي سعيد الخدري فقط! وعند تأمّل الرّوايات الواردة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في هذا الشّأن نلحظ أنّها كلّها مرويّة عن عطيّة العوفي، وعطيّة العوفي ضعيف الحديث عند عامّة علماء الجرح والتّعديل كما لا يخفى «ثمّ نقل أقوالهم فيه ثمّ قال: أمّا روايات أمّ سلمة رضي الله عنها فأغلبها من طريق عطيّة العوفي أيضًا.

الجواب الثَّاني: على فرض صحَّة تلك الزِّيادة يجاب عنها بوجهين:

الوجه الأوّل: أن يقال إنَّ أزواج النّبيِّ معلوم دخولهنّ في أهل البيت بنصّ الآية إذ السِّياق في مخاطبتهنَّ فلا حاجة لدخول أمّ سلمة تحت الكساء، وأمَّا أصحاب الكساء فيحتاجون لهذا البيان والدُّعاء لأنّهم لولا هذا البيان لتوهّم أنّهم غير داخلين في أهل البيت يقول الآلوسي: «وعدم إدخالها في بعض المرات تحت الكساء ليس لأنّها ليست من أهل البيت أصلاً، بل لظهور أنّها منهم حيث كانت من الأزواج اللاّتي يقتضي سياق الآية وسباقها دخولهنَّ فيهم بخلاف من أدخلوا تحته ـ رضي الله تعالى عنهم ـ فإنَّه ﷺ لو لم يدخلهم ويقل ما قال لتوهّم عدم دخولهم في الآية لعدم اقتضاء سياقها وسباقها ذلك». «روح المعاني» (196/11).

والوجه الثَّاني: يقال إنَّ المانع لإدخال أمّ سلمة تحت الكساء هو وجود عليّ رضي الله عنه تحته لا أنَّها ليست من أهل البيت، فكان من غير المناسب أن تدخل أمّ سلمة الكساء وفيه عليّ رضي الله عنه، يقول المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (9/ 48)، بقوله: «يحتمل أن يكون معناه أنت خير وعلى مكانك من كونك من أهل بيتي ولا حاجة لك في الدُّخول تحت الكساء كأنَّه منعها عن ذلك لمكان علي».

الجواب الثَّالث: وممَّا يجاب عن وصف أهل الكساء في بعض طرق الحديث بأنَّهم «هؤلاء أهل بيتي»[9]: أنَّه ليس فيه حصر لأهل البيت في من ذكروا، بل يدخل غيرهم في مسمَّى أهل البيت ومن ذلك أزواج النَّبيِّ ﷺ وفي ذلك يقول الطَّاهر ابن

(9) «المسند» (16988).

عاشور رحمه الله: «... وليس في لفظ حديث الكساء ما يقتضي قصر هذا الوصف على أهل الكساء إذ ليس في قوله: «هؤلاء أهل بيتي» صيغة قصر، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ [الحجر: 68]، ليس معناه ليس لي ضيف غيرهم» اهـ.

ونظير هذا ما جاء أنَّ مسجد قباء أسس على التَّقوى، ومسجده ﷺ أيضًا أسِّس على التَّقوى، وهو أكمل في ذلك، فلمَّا نزل قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [سورة التوبة]، بسبب مسجد قباء، تناول اللَّفظ لمسجد قباء ولمسجده ﷺ بطريق الأولى»[10].

وعلى فرض التَّعارض بين النُّصوص الدَّالة على إدخال غير أصحاب الكساء مع دلالة القصر في قوله «هؤلاء أهل بيتي» فيقدَّم المنطوق الدَّال على أنَّ الأزواج وغيرهم من أهل البيت على دلالة المفهوم من الحصر الوارد في حديث الكساء. أفاده الشَّوكاني في كتابه «نيل الأوطار» (2/ 336).

✧✧✧

الشُّبهة الثَّانية: من الشُّبه الَّتي تعلَّقت بها الشِّيعة وغيرهم في منع دخول أزواج النَّبيِّ ﷺ في آية التَّطهير أنَّ الخطاب في الآية جاء بصيغة المذكَّر فقال «عنكم» و «يطهِّركم» ولو كان الخطاب لهنَّ لكان بصيغة المؤنَّث أي «عنكنَّ» و«يطهركنَّ».

✧ **والجواب:** أنَّه قد عُهد مجيء الخطاب المذكَّر لأهل البيت مع أنَّ المراد به المؤنَّث من ذلك قوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [سورة هود]، والخطاب إنَّما هو لامرأة إبراهيم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [سورة القصص]»، والمقول له هي زوجة موسى والخطاب مذكَّر، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: 30]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الَّتي جاء الخطاب فيها مذكَّرًا وموجَّهًا لأهل البيت والمقصود منه الإناث، وعلى هذا فيخرّج التّذكير في الخطاب على أنَّه روعي تذكير اللَّفظ وهو الأهل، أو أنّه لمَّا كان الخطاب متوجّهًا إلى أهل البيت وفيهم الرِّجال، فيغلّب جانب الذُّكور في الخطاب يقول القرطبي في «تفسيره» (14/ 183): «إلاَّ أنَّه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل، كما يقول الرَّجل لصاحبه: كيف أهلك، أي امرأتك ونساؤك، فيقول: هم بخير،... وإنَّما قال: «ويطهِّركم» لأنَّ رسول الله ﷺ وعليًّا وحسنًا وحسينًا كان فيهم، وإذا اجتمع المذكَّر والمؤنَّث غلب المذكَّر، فاقتضت الآية أنَّ الزَّوجات من أهل البيت، لأنَّ الآية فيهن، والمخاطبة لهنَّ يدلُّ عليه سياق الكلام».

وقد لمَّح الشَّيخ الطَّاهر بن عاشور إلى معنى لطيف في أنَّ هذا التَّغليب يعود بالتَّطهير على أزواج النَّبيِّ ﷺ حيث يقول: «وفي هذا التَّغليب إيماء إلى أنَّ هذا التَّطهير لهنَّ لأجل مقام النَّبيِّ ﷺ لتكون قريناته مشابهات له في الزَّكاة والكمال، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: 26]، يعني أزواج النَّبيء للنَّبيء ﷺ». «التَّحرير والتَّنوير» (22/14).

✧✧✧

الشُّبهة الثَّالثة: من الشُّبه الَّتي أرادوا بها التَّشويش على دلالة سياق الآية قولهم: إنَّ هناك مغايرة بين الآيات، «لأنَّ آية التَّطهير جملة ندائيَّة وخبريَّة وما قبلها وما بعدها من الأمر والنَّهي جمل إنشائيَّة وعطف الإنشائية على الخبريَّة لا يجيء فإنَّه ممنوع».

✧ **والجواب عن هذه الشُّبهة** كما ذكر أبو المعالي الألوسي من ثلاثة أوجه:

الوجه الأوَّل: أن يقال: آية التَّطهير ليست جملة ندائية بل النِّداء وقع بينهما وهو قوله سبحانه: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾».

الوجه الثَّاني: على تقدير كونها ندائيّة، فكيف تكون خبريّة؛ لأنَّ النِّداء من أقسام الإنشاء دون الخبر كما لا يخفى.

الوجه الثَّالث: أن يجاب عن إشكال العطف الَّذي أوردوه :فيقال أين حرف العطف في آية التَّطهير؟ كيف وهي تعليل للأمر بالإطاعة في قوله تعالى: ﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب: 33]، ووقوع تعليل الإنشائية بالخبريَّة في كلّ القرآن والأحاديث الشَّريفة وكلام البلغاء مشهور، مثل: اضرب زيدًا إنَّه فاسق، أطعني يا غلام إنَّما أريد أكرمك.

وإن أراد عطف (واذكرن) فما عطف عليه وهو (أطعن) و(قرن). والأوامر الأخر السَّابقة كلّها جمل إنشائيَّة فلا يلزم عطف الخبر على الإنشائية[11].

✧✧✧

الشُّبهة الرَّابعة: من الشُّبه الَّتي يوردها هؤلاء تفسير زيد بن أرقم رضي الله عنه للآية حيث ورد عنه ما يوهم أنَّهنّ غير

(10) «منهاج السُّنَّة» (24/4).

(11) انتهى بتصرّف يسير من «مختصر التُّحفة» (ص150).

داخلات في أهل البيت المذكور في الآية فأخرج مسلم في «صحيحه» (2408) عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ يومًا خطيبًا..... وفيه: «فقال له حصين. ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: - أي زيد ابن أرقم -: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرّم الصَّدقة بعده، قال ومن هم؟ قال: هم آل عليّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عبَّاس، رضي الله عنهم».

وذكر مسلم رواية أخرى عقب «الأثر» (2408) عن زيد أيضًا بلفظ: «فقلت له: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا. وايم الله إنَّ المرأة تكون مع الرَّجل العصر من الدَّهر ثمَّ يطلّقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته أصله وعصبته الَّذين حرموا الصَّدقة بعده».

✧ **والجواب:** أنَّ الرِّواية الأولى للأثر ليس فيها نفيُه ﷺ أنّهنَّ من أهل بيته والنَّفي إنَّما وقع في الرِّواية الثَّانية والجمع بينهما أنَّه أراد بالنَّفي أنّهنَّ غير داخلات في آله الَّذين حرموا الصَّدقة، قال ابن كثير (415/6): وهذه الثَّانية - أي رواية النَّفي - تحتمل أنَّه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الَّذي رواه إنَّما المراد بهم آله الَّذين حرموا الصَّدقة، أو أنَّه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح جمعًا بينها وبين الرِّواية الَّتي قبلها، وجمعًا أيضًا بين القرآن والأحاديث المتقدِّمة إن صحَّت، فإنَّ في بعض أسانيدها نظرًا والله أعلم» وبنحو هذا جمع النَّووي بين الرِّوايتين كما في «شرحه على صحيح مسلم» (180/15).

✧✧✧

☐ **الشُّبهة الخامسة:** قولهم: «إنَّ كون البيوت جمعًا في بيوتكنّ وإفراد أهل البيت يدلُّ على أنَّ بيوتهنَّ غير بيت النَّبيِّ ﷺ ولو كنَّ أهل البيت لوقع الكلام: اذكرن ما يتلى في بيتكنّ».

✧ **والجواب عن هذه الشُّبهة** ما سطَّره علاَّمة بغداد الشِّهاب الألوسي حيث قال في كتابه «روح المعاني» (194/11): «وتوحيد البيت لأنَّ بيوت الأزواج المطهّرات باعتبار الإضافة إلى النَّبيِّ ﷺ بيت واحد وجمعه فيما سبق ولحق باعتبار الإضافة إلى الأزواج المطهّرات اللاَّتي كنَّ متعددات». وانظر: «مختصر التُّحفة الاثني عشريَّة» (ص149).

هذا مجمل الكلام في المقام الأوَّل ولننتقل للكلام في المقام الثَّاني.



■ أمَّا المقام الثَّاني:

فهو في استدلال الشِّيعة بهذه الآية على عصمة أهل البيت، ومن ثمَّة استدلالهم على إمامة الأئمَّة الاثني عشر، ومرتكز استدلالهم بهذه الآية على شبهات انتزعوها من سياقها وظاهرها فمن تلك الشُّبه:

☐ **الشُّبهة الأولى:** قالوا إنَّ التَّطهير في الآية يفيد عصمة أهل البيت، يقول ابن مطهر الحلّي: «وفي هذه الآية دلالة على العصمة، مع التَّأكيد بلفظه: «إنَّما» وإدخال اللاَّم في الخبر، والاختصاص في الخطاب بقوله: «أهل البيت» والتَّكرير بقوله: «ويطهِّركم» والتَّأكيد بقوله «تطهيرا» وغيرهم ليس بمعصوم، فتكون الإمامة في علي... وقد ثبت نفي الرِّجس عنه، فيكون صادقًا، فيكون هو الإمام». نقله عنه ابن تيمية في «منهاج السنَّة» (70/7).

✧ **فيجاب عن هذا الافتراء بأمور:** من ذلك أنَّ التَّطهير وإذهاب الرِّجس لم يرد في القرآن ولا في لغة العرب بمعنى العصمة حتَّى نستدلّ بها على الإمامة، فلو رجعنا إلى كتاب «المفردات» للرَّاغب (ص525) في مادَّة «طهر» لا نجد من الاشتقاقات الواردة لهذا الفعل في القرآن ما جاء بمعنى العصمة ونذكر

من هـذه الآيات قوله تعـالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 55]، أي: مخرجك من جملتهم ومنزهك أن تفعل فعلهم وعلى هـذا: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]، ﴿وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ : 42]، ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [الأَحْزَابِ : 53]، ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [سُورَةُ الوَاقِعَةِ]»، إلى غيرها من الآيات الكريمة.

وهكذا لو انتقلنا إلى الشَّطر الثَّاني من مركّب استدلالهم وهو «إذهاب الرِّجس» فلا نجد في كتاب الله ولا في لغة العرب أنَّ هذا التَّركيب يفيد عصمة أهل البيت لا لغةً ولا شرعًا لأنَّهم يقولون إنَّ إذهاب الرِّجس يدخل فيه حتَّى الخطأ والسَّهو فضلاً عن الصَّغائر والكبائر، وهذه دعوى عريضة لا يحتملها هذا اللَّفظ قال الشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «إرشاد الفحول» (1/ 222): «ولكن لا يخفاك أنَّ كون الخطأ رجس لا يدلُّ عليه لغة ولا شرع فإنَّ معناه في اللُّغة القذر، ويطلق في الشَّرع على العذاب كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأَعْرَافِ : 81]، وقوله: ﴿مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ والرِّجز الرِّجس».

✧ ثمَّ هناك جواب آخر حيث يقال: إنَّ لفظ الرِّجس الوارد في الآية لا عموم فيه حتَّى يستدلّ به على إذهاب جميع الأرجاس بما في ذلك الخطأ والسَّهو وجميع المعاصي يقول الرَّازي: «لا نسلِّم دلالة الآية على زوال كلِّ رجس لأنَّ المفرد المعرَّف لا يفيد العموم». «المحصول» (4/ 173).

بل لو وسَّعنا النَّظر في كتاب الله نجد أنَّه قد ورد لفظ «التَّطهير» مقترنًا مع «إذهاب الرِّجس» في القرآن مرَّتين: مرَّة في أهل بدر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [سُورَةُ الأَنْفَالِ].

ومرَّة في أهل بيت النَّبيِّ ﷺ وذلك في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]، وعند التَّأمُّل في الآيتين نجد الآية الأولى الَّتي نزلت في حقِّ الصَّحابة محتفَّة بالقرائن الَّتي تجعلها مؤكَّدة وأدلّ على المقصود ـ أي على العصمة (تنزّلا) ـ من آية التَّطهير يقول الشَّيخ محمود شكري الألوسي: «وظاهر أنَّ إتمام النِّعمة في الصَّحابة كرامة زائدة بالنِّسبة إلى ذينك اللَّفظين ووقوع هذا الإتمام أدلّ على عصمتهم لأنَّ إتمام النِّعمة لا يتصوَّر بدون الحفظ عن المعاصي وشر الشَّيطان»[12].

بل نجد في قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المَائِدَةِ : 6]، ما يدلُّ على عموم التَّطهير لمن امتثل أمر ربّه، «ولو كانت إرادة التَّطهير تعني (العصمة) لكان كلّ مسلم معصومًا»[13].

وقل مثل هذا في إذهاب الرِّجس حيث جاء في كتاب الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ]، فمفهوم الآية أنَّ الرِّجس منتف عن المؤمنين فيَلزم على قول الشِّيعة عصمة جميع المؤمنين وهذا ممَّا لا يقولون به.

(12) «مختصر التُّحفة» (1/153).

(13) «آية التَّطهير وعلاقتها بعصمة الأئمَّة» (ص13).



✧ والجواب الثَّاني: أن يقال إنَّ إرادة الله للتَّطهير الواردة في الآية إنَّما هي الإرادة الشَّرعيَّة الَّتي تتوقَّف على استجابة المخاطب للأوامر والانتهاء عن مقتضى الزَّواجر، وذلك لأمور وقرائن تؤيِّد هذا المعنى: منها ما مرَّ معك في حديث الكساء الَّذي فيه دعاء النَّبيِّ ﷺ لأهل بيته بالتَّطهير، ولو كانت الإرادة هنا إرادة كونيَّة قدريَّة لكان فيه تحصيل حاصل فلا حاجة لدعاء النَّبيِّ ﷺ لأهل بيته بعدما ثبت الوقوع، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا دليل على أنَّ الآية لم تخبر بوقوع ذلك، فإنَّه لو كان قد وقع لكان يثني على الله بوقوعه ويشكره على ذلك، لا يقتصر على مجرَّد الدُّعاء به»[14]. «منهاج السُّنَّة» (4/22).

الأمر الثَّاني: إنَّ السِّياق إنَّما هو في

(14) فإن قيل يلزم من دعاء النَّبيِّ ﷺ الوقوع فيجاب: إنَّ الإجابة لدعائه ﷺ تكون بحسب استعداد المحلّ، فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات، لم يلزم أن لا يوجد مؤمن مذنب، فإنَّ هذا، لو كان واقعًا، لما عذِّب مؤمن، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.
انظر: «تفسير القاسمي» (8/74).



الأوامر والنَّواهي حيث يبتدئ الخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ثمَّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: 33].

ثمَّ يأتي التَّعليل لهذه الأوامر والنَّواهي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ﴾»، فالمخاطب يحتمل في حقِّه الطَّاعة والمعصية. فيحذِّره الله من المعصية، ويحثُّه على الطَّاعة؛ فالإرادة تكون شرعيَّة: بمعنى أن الله يأمر بما أراده ويحبُّه؛ فاحرص ـ أيُّها المخاطب ـ على تحقيق إرادة الله في تطهير هذا البيت الَّذي تنتسب اليه وإذهاب الرِّجس عنه»[15].

الأمر الثَّالث: ما يؤيِّد أنَّ الإرادة هنا الشرعيَّة لا الإرادة الكونيَّة هو الواقع، وذلك أنَّنا نرى أفرادًا من أهل البيت لم ينلهم هذا التَّطهير يقول ابن تيمية:

«إنَّ الله تعالى لم يخبر أنَّه طهَّر جميع أهل البيت وأذهب عنهم الرِّجس، فإنَّ هذا كذب على الله، كيف ونحن نعلم أنَّ في بني هاشم من ليس بمطهَّر من الذُّنوب، ولا أذهب عنهم الرِّجس، لا سيما عند الرَّافضة، فإنَّ عندهم كلّ من كان من بني هاشم يحبّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فليس بمطهَّر». «منهاج السنَّة» (259/4).

ثمَّ يقال: «لو كانت إفادة معنى العصمة مقصودة لقيل هكذا: إنَّ الله أذهب عنكم الرِّجس أهل البيت، الآية»[16].

فكيف يعدل القرآن عن البيان إلى الإجمال في أصل مهمٍّ عليه يُبنى دين الإسلام كما يزعمون.

وأمَّا قول الشِّيعة إنَّ الإرادة هنا هي الإرادة الكونيَّة فلا يتأتَّى ذلك على أصلهم في القدر، فإنَّهم على عقيدة المعتزلة في نفي القدر حيث يقولون إنَّ الله لا يستطيع أن يهدي ضالاًّ ولا يضلّ مهتديًا وأنَّ العباد يقدرون على الطَّاعة والمعصية والله لا يقدر على أفعالهم، فيقال لهم إنَّ الرِّجس من المعصية الَّتي في قدرتنا، فكيف يعتقدون أنَّ الله لا يقدر على أفعالنا، ثمَّ يقولون: إنَّه يقدر أن يمنعنا من أفعالنا فهنا إمَّا أن يقولوا بقول أهل السنَّة وهو: أنَّ الله عزَّ وجلَّ على كلِّ شيءٍ قدير، وأنَّه سبحانه هو الَّذي يعين الطَّائع ويوفِّقه، ويترك العاصي ولا يعينه، ليستقيم لهم الاستدلال، وإمَّا أن ينفوا التَّطهير»[17].

✧✧✧

□ **الشُّبهة الثَّانية:** من الشُّبه الَّتي تعلَّق بها الرَّافضة في إثبات العصمة لأئمَّتهم: ما ذكروه من أنَّ التَّطهير الوارد في الآية لو كان غير العصمة بل هو ما أراد منهم من فعل الطَّاعات واجتناب المعاصي، فتكون «الإرادة حاصلة مع جميع المكلَّفين، فلا اختصاص لأهل البيت في ذلك، ولا خلاف أنَّ الله تعالى خصَّ بهذه الآية أهل البيت بأمر لم يشركهم فيه غيرهم، فكيف يحمل على ما يبطل هذا التَّخصيص ويخرج الآية من أن يكون لهم فيها فضيلة ومزيَّة على غيرهم؟»[18].

✧ **والجواب عن هذه الفرية** أن يقال يلزمكم على قولكم بأخصِّيَّة التَّطهير في نساء النَّبيِّ ﷺ خاصَّة، لما خصَّهنَّ الله بأحكام وفضائل ما ليس لغيرهنَّ، فوعدهنَّ بمضاعفة الأجر، كما اختصصن بنزول الوحي في بيوتهن، وهذا يجعلهنَّ أقرب إلى التَّطهير وإذهاب الرِّجس، ثمَّ يجاب عن إلزامهم للمخالف بأنَّ ذلك يبطل الاختصاص: أن يقال إنَّ التَّطهير لو كان مشتركًا في المعنى بين أفراد كثيرين فلا يمنع الفضيلة والمزيَّة لأحد الأفراد على غيره، «فإرادة التَّطهير وإن كانت حاصلة مع المكلفين، إلاَّ أنَّ أهل البيت بها أخصّ فهم المقتدى بهم، ولأصحاب الكساء النَّصيب الأوفى. فهذا التَّأويل لا يمنع الفضيلة والمزية، ولكنَّه لا يثبت العصمة»[19].

ثمَّ يقال لو سلَّمنا جدلاً أنَّ التَّطهير واقع كونا وأنَّ المراد منها العصمة فما

(15) «آية التَّطهير» (ص42ـ43)، وانظر: «منهاج السُّنَّة» (23/4).

(16) «مختصر التُّحفة» (ص153).

(17) حوار هادئ مع الدُّكتور القزويني (ص370)، وانظر: «منهاج السُّنَّة» (72/7).

(18) «التِّبيان في تفسير القرآن» للطوسي (377/15).

(19) ينظر كتاب «مع الاثني عشر في الأصول والفروع» (ص85).

الدَّليل على تخصيصها في اثني عشر إمامًا، وإخراج أزواج النَّبيِّ اللاَّئي نزلت الآية فيهنّ، فليس لهم في ذلك دليل يقوِّي ما ذهبوا إليه فأقصى ما يستدلُّون به حديث الكساء فأين الدَّليل لغيرهم، وهذا تحكُّم من غير دليل، يقول الشَّوكاني رحمه الله: «ثمَّ يقال إذا كانت هذه الصِّيغة تقتضي الحصر فما الدَّليل على دخول أولاد المجللين بالكساء في الآل مع أنَّه مفهوم هذا الحصر يخرجهم فإن كان إدخالهم بمخصص وهو التَّفسير بالذريَّة وذريَّته ﷺ هم أولاد فاطمة فما الفرق بين مخصص ومخصص؟». «نيل الأوطار» (336/2).

✧✧✧

□ **الشُّبهة الثَّالثة:** من الشُّبهات الَّتي استند إليها الإماميَّة صيغة الحصر في قوله: «إنَّما يريد الله ليذهب ....»[20].

قالوا: والحصر يدلّ على قصر إذهاب الرِّجس والتَّطهير في أهل البيت.

يقول الطُّوسي: «فيكون تلخيص الكلام: ليس يريد الله إلاَّ إذهاب الرِّجس على هذا الحدّ عن أهل البيت» [21].

والجواب أن يقال إنَّ الحصر ليس يفيد ما ادَّعيتم بل حصر للغاية والمقصود من الأوامر والنَّواهي الموجَّه الى أزواج النَّبيِّ ﷺ، قال القرافي: «فعلى تقدير أن يكون المفعول محذوفًا، لا تدلّ الآية على أنَّه ـ تعالى ـ ما أراد إزالة الرِّجس عن أحد إلاَّ عن أهل البيت، بل تدلُّ على أنَّه ـ تعالى ـ إنَّما أراد شرعيَّة تلك المحاسن لهذه الحكمة، وأنت إذا قلت: «إنَّما أعطيتك هذا المال ليتَّسع حالك» لا تدلُّ على أنَّك لا توسِّع على غيره، بل على حصر غرضك في التَّوسعة عليه، لا أنَّك لا توسع على غيره، وكذلك إذا قلت: إنَّما اشتريت هذه السِّلعة لأربح فيها، لا تدلّ على أنَّك تقصد الرِّبح في غيرها»[22].

ومن الأجوبة عن هذه الشُّبهة أن يقال: لو قلنا إنَّ الآية تفيد حصر إرادة الله في إذهاب الرِّجس فهذا مناقض لما نعلمه بالضَّرورة أنَّ الله تعالى أراد أشياء كثيرة غير إذهاب الرِّجس كالإحياء والإماتة وغير ذلك قال الرَّجراجي: «والحصر متعذّر؛ لأنَّ إرادة الله تعالى شاملة لجميع أجزاء العالم فبطلت الحقيقة، فإذا بطلت الحقيقة تعيَّن المجاز، ووجوه المجاز غير منحصرة، فيصير في الآية إجمال فيسقط بها الاستدلال»[23].

فهذه عمد شبه الشِّيعة الإماميَّة حول هذه الآية، تعلَّقوا بها كدليل على إثبات الإمامة والعصمة الَّتي يعتقدون أنَّها أصل مذهبهم وأنَّها ثابتة بالنَّص وأنَّ المخالف فيها كافر إذ لا يتمُّ الإيمان إلاَّ بها، كما لا يجوز عندهم التَّقليد فيها[24].

فإذا كان هذا حال استدلالهم بآية التَّطهير الَّتي يعتبرونها أقوى دليل لهم في هذا الباب فما أدراك بغيرها من الأدلَّة الَّتي نصَّبوها لإثبات هذا الأصل المزعوم، ولو كانت الإمامة كما زعموا من أصول الدِّين لبيَّنه القرآن أوضح بيان كما أوضح شرائع الإسلام وأصول الإيمان من التَّوحيد والنبوَّات والبعث والمعاد، بل قل في أدنى من ذلك كما في «آية الدَّين»، فما بال الإمامة لم يأت فيها ذكر ولو بالإيماء والتَّنبيه، ليصدق في هؤلاء قول الباري تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ ﴾ [ : 7].

وسبحانك اللَّهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

✧✧✧



---

(20) لا يصحّ الاستدلال بإنَّما على أنَّها تفيد الحصر مع القول بأنَّ جملة «إنَّما يريد الله ليذهب..» استئنافيَّة كما تقول الإماميَّة، لأنَّ «إنَّما» لا يصحّ الابتداء بها بل تأتي تعقيبًا لكلام سابق، قال الفرَّاء وهو يتكلَّم عن إنَّما: «ولا يكون ابتداء إلاَّ ردًّا على أمر، ولا يكون ابتداء كلام».
قال ابن فارس: «والَّذي قاله الفرَّاء صحيح»، «البحر المحيط» للزركشي (239/3).
وهذا إنَّما يتأتَّى على من قال أنَّ هذه الجملة تابعة لما سبق من الأوامر والنَّواهي كما هو ظاهر.

(21) «التبيان في تفسير القرآن» للطوسي (15/337).

(22) انظر: «شرح نفائس الأصول» (2719/6)، وانظر: كتاب «روح المعاني» (193/11) في ذكر أوجه إعراب اللاَّم في هذه الآية، وذكر القرافي وجهًا آخر وهو: «..(اللاَّم) للتَّأكيد نقول: تقدير الكلام: إنَّما يريد الله أن يذهب الرُّجس عنكم، ....، فيصير التَّقدير: إنَّما يريد الله إذهاب الرِّجس عنكم، فتدلّ على حصر إرادته ـ تعالى ـ في إذهاب الرُّجس عنهم لا على حصر زوال الرُّجس عنهم، ...» ثمَّ مال إلى الوجه الأوَّل انظر: «شرح نفائس الأصول» (2719/6)، وانظر: كتاب «روح المعاني» (193/11) في ذكر أوجه إعراب اللاَّم في هذه الآية..

(23) «رفع النِّقاب عن تنقيح الشّهاب» (634/4) وانظر «شرح تنقيح الفصول» (ص334).

(24) انظر: «عقائد الإماميَّة» (ص54).



الثبات وأهميته في حياة المسلم

عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

إنَّ فلاحَ العبد في الدُّنيا والآخرة مرتبطٌ بمدى استقامته والتزامه بشرع الله والثَّبات عليه في كلِّ الأحوال، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحقاف].

وغيرُ خافٍ على أحد ما يعيشه المسلمُ في هذا الزَّمان من فساد أحوال الخلق ـ إلاَّ من رحم الله ـ وانتشار الفتن وألوان المُغريات، وأصناف الشَّهوات والشُّبهات، هذا مع ضعف الإيمان ونُدرة النَّاصحين وغياب الأعوان، وقلَّة النَّاصرين، حتَّى كأنَّنا في ذلك الزَّمان الَّذي وصفه النَّبيُّ ﷺ بقوله: «يأْتي على النَّاس زَمانٌ الصَّابِرُ فيهم على دِينه كالقابِض على الجَمْر»[1].

(1) التِّرمذي (2260)، وقال الألباني: «صحيح».

لذا تعيَّن البحثُ عما يحفظ المسلم به دينَه وإيمانَه، ويحتمي به من شرور الفتن والبلاء، وليس له من ذلك إلاَّ الثَّباتُ والجلَدُ، والصَّبر والتَّصبُّر؛ فإنَّ صفة الثَّبات الَّتي تعني دوامَ الاستقامة على الهدى أمامَ دواعي الأهواء وفتن الشَّهوات والشُّبهات نعمةٌ عظيمةٌ، ومنَّةٌ جسيمةٌ، حَبَا الله بها أولياءَه وأصفياءَه، ونصر بها رسلَه وأنبياءَه، فقال تعالى مُخاطبًا عبدَه ورسولَه ﷺ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء].

قال القرطبي في «الجامع» (13/ 135):

«أي على الحقِّ وعصمناك من موافقتهم».

***

والثَّباتُ يُستَلْهَمُ من مانحه ومُعطيه، وهو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، صاحبُ المنِّ والفضل، فهو المُثَبِّتُ في الأصل، وإن لم يكن هو من أسماء الله الحسنى، فهو من أفعاله وصفاته، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: 27]، وكان النَّبيُّ ﷺ يُكثِرُ أن يقول في دعائه: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[2].

وكلُّ هذا يدُلُّ على أنَّ العبدَ لا يستغني عن تثبيتِ الله له طَرفةَ عين، وإلاَّ زالت سماءُ إيمانه وأرضه عن مكانهما، ومن ذكر النَّبيِّ ﷺ عند كلِّ صباح ومساء: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»[3].

وفي «صحيح مسلم» (2654) أنَّه ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا على طَاعَتِكَ».

قال القاري في «مرقاة المفاتيح» (1/ 163):

«قيل: وفيه إرشاد للأمَّة، والظَّاهر أنَّ كلَّ أحد من العباد كما أنَّه مُفتَقِرٌ إليه تعالى في الإيجاد، لا يستغني عنه ساعةً من الإمداد».

(2) سيأتي تخريجه.
(3) النَّسائي في «الكبرى» (10330)، والحاكم (2000)، وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (2457).



✧ ويُنسَب التَّثبيتُ أيضًا إلى الملائكة؛ لأنَّها تَنزِلُ لتَثبيتِ المؤمنين بأمرِ الله وإذنه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ...﴾ [الأنفال: 12]، وهذا في المعارك وقتال الأعداء.

وجبريل - وهو من الملائكة المُقرَّبين - يُثبِّتُ المؤمنين بما ينزله من القرآن، فهو مُثبِّتٌ يُثبِّتُ الَّذين آمنوا بمادَّة الثَّبات ووسيلة الثَّبات، وهي القرآنُ خير كلام أنزل، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة النحل]، والملائكة عمومًا تُثبِّت المؤمنين عند الموت، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة فصلت].

وهذا نوعٌ من التَّثبيتِ وهو أحوج ما يكون إليه العبد.

❋❋❋

والمسلم كيفما كان، قويَّ الإيمان أو ضعيفَه، كثيرَ العلم أو قليلَه، كبيرَ السِّن أو صغيرَه، فهو في حاجة إلى التَّثبيت، وأنَّه لا غِنَى عنه، ولا بدَّ له منه.

قال ابنُ القيِّم في «إعلام المُوقِّعين» (1/ 354):

«فالخلق كلُّهم قسمان: مُوفَّقٌ بالتَّثبيت ومخذول بترك التَّثبيت».

والسِّرُّ عظيم؛ فإنَّ الله أمر في أعظم ما شرع من العبادات - وهي الصَّلاة - أن يَقرأَ المُصلِّي سورةَ الفاتحة في كلِّ ركعة، وفيها ذلك الدُّعاء العظيم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [سورة الفاتحة]، والهداية إلى الصِّراط المستقيم هنا بمعنى الثَّبات على الصِّراط المستقيم.

قال ابنُ تيمية في الفتاوى (14/ 320):

«ليس كما يقوله طائفةٌ من المُفسِّرين: إنَّه قد هداه، فلماذا يسأل الهدى؟ وأنَّ المرادَ بسؤال الهدى: الثَّبات أو مزيد الهداية.

وتفسير هذا أنَّ الهدايةَ على ثلاثة أقسام:

الأولى: هداية الإرشاد والتَّعليم والدَّلالة.

الثَّانية: هداية التَّوفيق لقبول الحقِّ.

الثَّالثة: هداية التَّوفيق للثَّبات على الحقِّ».

والمُصلِّي حينما يُردِّدُ دعاءَ الفاتحة يحتاج هذه الهدايات جميعًا، ولذلك قال شيخُ الإسلام «الفتاوى» (14/ 32):

«ولهذا كان أنفعُ الدُّعاء وأعظمُه وأحكمُه: دعاءَ الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾؛ فإنَّه إذا هداه إلى الصِّراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يُصبه شرٌّ في الدُّنيا ولا في الآخرة، لكنَّ الذُّنوب هي من لوازم الإنسان، وهو محتاج إلى الهدى في كلِّ لحظة، وهو إلى الهدى أحوجُ منه إلى الأكل والشُّرب».

❋❋❋

وممَّا يجب أن يُعتَنَى به لضمان صفة الثَّباتِ وترسيخها في النَّفس والقلب؛ إذ هو محلُّ التَّثبيت ومحلُّ التَّقلُّب أيضًا، ولهذا وجبت العنايةُ به، فهو أهمُّ الجوارح وأخطَرُها، قال النَّبيُّ ﷺ: «...أَلاَ وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، أَلاَ وهي القَلْبُ»[4]، وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ ﷺ يُكثرُ أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي على دِينِكَ»، قال: فقلنا: يا رسولَ الله، آمنَّا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ (أي من زوال نعمة الإيمان والانتقال من الكمال إلى النُّقصان) قال: «نَعَمْ! إنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»[5].

❋❋❋

ولمَّا كان الثَّباتُ على الدِّين من مُهمَّات الأمور، احتاج إلى مجاهدةٍ ومثابرةٍ من العبد في حمل نفسه وترويضها على الإيمان وفعل الطَّاعات، ثمَّ إلى توفيقٍ وحفظٍ من ربِّ الأرضِ والسَّموات؛ ليَسلَمَ من خواطفِ الأهواء ومُضِلاَّت الفتنِ وتوابع الشَّهوات والشُّبهات، وثبات العبد يُختَبَر عند الشَّدائد والأهوال وفي ساعات الكرب وضيقِ الأحوال، **وما أكثر تلك المواطن الَّتي يحتاج فيها العبد إلى الثَّبات والمقاومة وإلاَّ ضاع جهدُه وباءَ بالخسران، ومنها:**

○ الثَّباتُ عند الفتن:

وذلك أن تَغيُّرَ القلبِ وتَحَوُّلَه وتَقَلُّبَه سببُه الفتن بجميع أنواعها وأشكالها، وقد تجتمع عند المرءِ أكثرُها أو بعضُها، وقد تستمرُّ معه وقد لا تستمرُّ، وهي كثيرةٌ في آخر الزَّمان كما قال النَّبيُّ ﷺ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ ويُقْبَضُ العِلْمُ وتَظْهَرُ الفِتَنُ ويَكْثُرُ الهَرْجُ ويُلْقَى الشُّحُّ»[6]، ولم يأت في الشَّرع تحذيرٌ شديدٌ من شيءٍ كالتَّحذير من الفتن، وقد أكثر النَّبيُّ ﷺ من التَّحذير من الفتن في حديثه لأصحابه، وفي القرآن قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢٥﴾ [سُورَةُ الأَنفَالِ]، فهذه الآيةُ كما قال ابنُ كثير رحمه الله وإن كان المخاطَبُ بها هم صحابةُ رسول الله ﷺ، لكنَّها عامَّةٌ لكلِّ مسلم؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُحذِّرُ من الفتن[7].

ولمَّا كانتِ الفتنُ شديدةً على القلوبِ مُؤثِّرةً على حالِ الإنسانِ في إيمانه وسلوكه، أمر النَّبيُّ ﷺ بالتَّعوُّذ منها، وهذا أوَّلُ ما يُرسِّخ صفةَ الثَّباتِ في قلب المؤمن، قال النَّبيُّ ﷺ:

«تَعَوَّذُوا باللهِ مِنَ الفِتَنِ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»[8].

وعلَّم أمَّتَه من الدُّعاء ما يجعلهم في مأمن من كلِّ فتنةٍ مُضلَّةٍ أو مُضرَّة، كما في قوله ﷺ: «...اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وتَرْكَ المُنْكَرَاتِ وحُبَّ المَسَاكِينِ، وإذَا أَرَدْتَ بعِبَادِكَ فِتْنَةً فاقْبِضْنِي إلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ»[9].

ولهذا كان من مَعالم النَّجاة وعلامات سعادة المرء في الدُّنيا ومزايا صفة الثَّبات مجانبةُ الفتن وعدمُ الخوض فيها، قال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ السَّعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ السَّعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إنَّ السَّعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، ولَمَن ابْتُلِيَ فصَبَرَ فوَاهًا»[10]، وقد كرَّره ثلاثًا مبالغةً في التَّأكيد على التَّباعد عن الفتنِ واعتزالِ فِرَقها، ومن وقع في الفتنة وصبر على ظلم النَّاسِ له ولغيره واحتَمَلَ أذاهم ولم يحاربهم... فطوبى له بما حصل له من الأجر[11].

○ الثَّباتُ عند لقاء العدوِّ:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥﴾ [سُورَةُ الأَنفَالِ]، وهذا في المعارك وساحات القتال؛ لأنَّ من الكبائر الفرارَ من الزَّحف، قال ابنُ كثير (4/ 72): «فأمر تعالى بالثَّبات عند قتال الأعداء والصَّبرِ على مُبارَزَتِهم، فلا يَفِرُّوا ولا ينكلوا ولا يَجبُنوا، وأن يذكروا اللهَ في تلك الحالِ ولا يَنْسَوْهُ بل يستعينوا به ويتَّكلوا عليه ويسألوه النَّصرَ على أعدائهم وأن يُطيعُوا اللهَ ورسولَه في حالِهم ذلك».

(4) البخاري (52)، ومسلم (1599).
(5) أحمد (12107)، والتِّرمذي (2140).
(6) مسلم (157).
(7) «تفسير ابن كثير» (4/ 38) بتصرُّف.
(8) مسلم (2867).
(9) التِّرمذي (3333)، ومالك (736)، وصحَّحه الألباني في «التَّرغيب» (408).
(10) أبو داود (4263) وصحَّحه الألباني.
(11) «شرح ابن رسلان على أبي داود» (17/ 26).



○ الثَّباتُ على المنهجِ والسِّيرةِ:

وقد مدح اللهُ أصحابَ محمَّدٍ ﷺ بذلك في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]،

قال السعدي (ص660) في قوله تعالى: «﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ كما بدَّلَ غيرُهم، بل لم يزالوا على العهدِ، لا يَلْوُون ولا يتغيَّرون، فهؤلاء الرِّجالُ على الحقيقة، ومن عداهم فصُوَرُهم صُوَرُ رجال، وأمَّا الصِّفات فقد قَصُرَت عن صفاتِ الرِّجال».

والثَّباتُ على المنهجِ نعمةٌ عظيمةٌ من اللهِ على عبدِه الصَّالحِ، بحيث لو سُلِبَ جميعَ النِّعمِ الظَّاهرة، مُقابلَ نعمةِ الهدايةِ إلى الدِّين ونعمةِ الثَّباتِ على الحقِّ، ما كان مَغبونًا ولا محرومًا، بل يعيش دنياه مسرورًا ويموت مرحومًا، قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قرأت المُحكَمَ بعد وفاة نبيِّكم ﷺ بعشر سنين، فقد أنعَمَ اللهُ عليَّ بنعمتَيْن، لا أدري أيُّهما أفْضَل: أنْ هداني للإسلام، ولم يَجعَلْني حروريًّا»[12].

والمتأمِّل في قول هذا الرَّجل العالم يلحظ كيف أنَّه لم يَحصُرِ النِّعمةَ في الهدايةِ إلى هذا الدِّين حتَّى جَمَعَ إليها نعمةَ الثَّباتِ عليه، لما يَعلَم من خطرِ الشُّبَهِ الخطَّافةِ والفتنِ الفتَّاكة، الَّتي تُزيغُ العقولَ والقلوبَ، وتُظلِمُ السُّبُلَ والدُّروبَ، فيَضلُّ العبدُ بعد الهداية، ويَنتَكِسُ فيَسلُكُ سبيلَ أهلِ الغواية.

(12) «طبقات ابن سعد» (7/ 113)، و«سير أعلام النُّبلاء» (4/ 212).

○ الثَّبات عند الممات:

وهذا من أعظمِ مواطنِ الثَّبات، وعلامةِ فلاح العبد وفوزِه ونجاتِه عبرَ جميعِ مواطنِ الامتحان، وتلك هي حسن الخاتمة بأن يُوفَّقَ المؤمنُ ويُثبَّتَ ليَتلفَّظ بكلمةِ التَّوحيد قبل خروج روحِه؛ فإنَّ الأعمالَ بالخواتيم، ثمّ يُوفَّق بعد ذلك وهو في القبر لمَّا يسألُه الملكان، وذلك قولُه تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27] قال قتادة: «أمَّا الحياةُ الدُّنيا فيُثبِّتُهم بالخيرِ والعملِ الصَّالحِ، وفي الآخرة: في القبر»[13].

وهكذا العبدُ فهو محتاج في طريقِ سَيرِه إلى اللهِ إلى صفةِ الثَّباتِ يَستَحضِرُها في مواطنِ الامتحان، وأحوالِ الشِّدَّةِ والضَّرَّاءِ، عقدًا وعزمًا؛ لأنَّ «كمال العبد بالعزيمة والثَّبات، فمن لم تكنْ له عزيمةٌ فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص، فإذا انضمَّ الثَّباتُ إلى العزيمةِ أثمَرَ كلَّ مقامٍ شريفٍ وحالٍ كامل»[14]، وشاهد هذا ما جاء في الدُّعاءِ عن النَّبيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ والعَزِيمَةَ على الرُّشْدِ»[15]، قال ابنُ القيِّم: «وهاتان الكلمتان هما جِمَاعُ الفلاح، وما أُتيَ العبدُ إلَّا من تَضييعهما أو تَضييع أحدهما.... فإذا حصل الثَّباتُ أوَّلاً والعزيمةُ ثانيًا أفلَحَ كلَّ الفلاحِ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ»[16].

(13) «تفسير ابن كثير» (4/ 502).

❋ ❋ ❋

(14) «طريق الهجرتَيْن وباب السَّعادتَيْن» (2/ 578).
(15) أحمد (17114)، والتِّرمذي (3407).
(16) «مفتاح دار السَّعادة» (1/ 399).





أ.د.محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر



■ **السؤال:**

ما حكمُ تقليد القُرَّاء في القرآن بنيَّةِ جلبِ المُصلِّين؟ وجزاكم الله خيرًا.

■ **الجواب:**

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على مَنْ أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فقراءة القرآن الكريم بالألحان والتطريب على هيئة الأغاني المُطْربة وذلك بتمطيط الحروف والإفراط في المدِّ وتشبيع الممدود، أو قصر الممدود أو مدِّ المقصور، أو تحويل الحركات إلى أَنْ تصير حروفًا؛ فهذا لا يجوز للقارئ ولا يجوز لمقلِّده؛ لأنه إفراطٌ في تلحين القرآن، بحيث يفضي إلى إخراج القرآن عن صيغته بإدخالِ حركات فيه أو إخراج حركات منه، وذلك ـ بلا شكٍّ ـ عدولٌ بالقرآن عن نهجه القويم إلى الاعوجاج المنفيِّ بقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزُّمَر]، ولأنه يُتلذَّذ بتلك الألحان والنغمات على وجه الطرب والتسلية، ولا يُتوخَّى منها الاتِّعاظُ والاعتبارُ وفَهْمُ ما تحمله الآياتُ مِنْ معانٍ، كالوعد والوعيد، والأمر والنهي، والوعظ والتخويف وغيرها؛ الأمرُ الذي يذهب بوقار القرآن وجلاله وشرفه؛ ما يجعل القراءةَ ـ والحالُ هذه ـ بمثابة أصوات المزامير التي وَرَد فيها ذمُّ قريشٍ الذين كانوا يطوفون بالبيت بالتصفير والتصفيق في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗ﴾ [الأنفال: 35].

أمَّا إذا خَلَا الأمرُ مِنْ ذلك وكان المقلَّدُ للقارئ يتعلَّم منه مَخارجَ الحروف على وجهها الصحيح والأداء الحسن فلا يضرُّ ذلك ـ إنْ شاء الله تعالى ـ لخُلُوِّه مِنَ الألحان المُطْرِبة الشبيهة بالأغاني المنافية للخشوع والوجل، والتي لا تحقِّق الغايةَ مِنَ القراءة مِنْ تدبُّر الآيات وتفهُّم معانيها والاتِّعاظ بها وزيادة الإيمان بالله، كما أخبر به تعالى في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: 29]، ووَصَف الله المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ [الأنفال].

والعلم عند الله تعالى.

■■■



■ **السؤال:**

نحن مجموعةٌ من الطلبة نتلقَّى القرآن مشافهةً بطريقة التحقيق من شيخ مقرئ مُجاز، يشترط علينا عند بدء عرضِ القرآن تجويدَ الاستعاذة، وعند التلقين نردِّد بعده الآيات جميعًا بصوت واحد. فهل الاستعاذة من القرآن؟ وهل تُجوَّد مثل آيات القرآن؟ وهل الترديد الجماعيُّ جائزٌ شرعًا؟ جزاكم الله خيرًا.

■ **الجواب:**

فالمعلومُ أنَّ التعبُّد بتحسين الصوت وترتيله إنما يكون لخصوص القرآن الكريم دون ما سواه لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزَّمِّل] وقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء]، ولقوله ﷺ: «زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»[1] وقوله

(1) أخرجه أبو داود (1467)، والنسائي (1015)، وابن ماجه (1342)، وأحمد (4/283)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. والحديث صحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (2/401).

ﷺ: «مَا أَذِنَ اللهُ لشَيْءٍ مَا أَذِنَ لنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ يَتَغَنَّى بِالقُرْآنِ يَجْهَرُ بِه»[2].

وممَّا لا يخفى أنَّ الاستعاذةَ شُرعت لابتداء القرآن صيانةً للقراءة عن وساوس الشيطان لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، قال ابنُ حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد صحَّ إجماعُ جميع قرَّاء أهلِ الإسلام جيلاً بعد جيلٍ على الابتداء بالتعوُّذ متَّصلاً بالقراءة قبل الأخذ في القراءة»[3] وليست الاستعاذة بآية من القرآن الكريم، وكلُّ ما ليس منه لا يأخذُ حُكمه سواءً من جهة التعبُّد أو الاستدلال إلاَّ بدليل. ويُسرُّ الاستعاذة في الصلاة ولا يجهر بها، قال ابن قدامة: «لا أعلم فيه خلافًا»[4].

أمَّا ترديد القراءة جماعيًّا في حصَّة التلقين بصوتٍ واحدٍ على وجه التعبُّد فهو أمرٌ مُحْدَثٌ لم يعرفه السلف الصالح، ثمَّ إنَّ القراءة الجماعية ينتفي فيها الاستماع والإصغاء المأمور بهما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ].

هذا، ويجوز الاجتماعُ على قراءة القرآن، كلٌّ واحدٍ بانفراده أو بطريق الإدارة، فإنَّ ميزتها أنها تساعد على تعلُّم القرآن وإتقان القراءة مع خلوِّ هذه الطريقة من الإخلال بالاستماع المأمور به وتجرُّدها من التشويش واختلاط الأصوات، وعلى هذا المعنى يُحمل حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُم الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُم المَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُم اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[5] وحديثُ أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه عن معاوية رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلَامِ وَمَنَّ بِه عَلَيْنَا، قَالَ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ، قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ يُبَاهِي بِكُمُ المَلَائِكَةَ»[6].

والعِلمُ عندَ الله تعالى.

■■■

في حكم تشغيل القرآن في المقاهي

■ **السؤال:**

ما حكم تشغيل القرآن في مقهًى إلكترونيٍّ، حيث إنَّ الزبائن يتضجَّرون، ويقولون بأنَّ ذلك لا يتوافق مع طبيعة المقهى، أفيدونا أطالَ اللهُ في عُمُرِكم في طاعته.

■ **الجواب:**

فمِن بين الآداب التي ينبغي لقارئ القرآن أو المُستمِعِ إليه أَنْ يتأدَّب بها: أَنْ يجلس في موضعٍ طاهرٍ ونظيفٍ متخشِّعًا بسكينةٍ ووقارٍ في أيِّ هيئةٍ يقدر عليها قائمًا أو قاعدًا أو مضطجعًا أو في فراشه وما إلى ذلك لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، والأكمل أَنْ يجلس مُستقبلاً القبلة مُطْرِقًا رأسَه كالجلوس بين يدَيْ مُعلِّمه، لقوله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَيِّدًا، وَإِنَّ سَيِّدَ المَجَالِسِ قُبَالَةَ القِبْلَةِ»[7]، وأَنْ يختار المكانَ الهادئ، يستحضر في نَفْسه لأَنْ يُناجيَ ربَّه ويُفرغ قلبَه له، فيقرأ أو يستمع كأنه يرى الله تعالى فإن لم يكن يراه فإنَّ الله تعالى يراه لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [سُورَةُ الأَعْرَافِ]، وهذه الآية وغيرها ـ وإِنْ كانَتْ واردةً في الصلاة ـ فالعبرةُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والأماكنُ التي يكثر فيها الصَّخَبُ وهيشاتُ الأسواق ليست مَحَلاًّ للقراءة أو للاستماع، لأنَّ من آدابها أَنْ تكون بتدبُّرٍ وتفكُّرٍ وتفهُّمٍ وخشوعٍ، بحيث يُشْغِل قلبَه بالتفكير في المعنى الذي يتلفَّظ به أو ينصت إليه ويتأمَّل في الأوامر والنواهي ويعتقد قبولَ ذلك؛ لذلك ينبغي أَنْ يختار المُناسبَ من المجالس احترامًا لكلام الله وصيانته عن الابتذال ودفع شهوة الرياء والسمعة وحبِّ الشهرة والظهور.

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا.

■■■

---

(2) أخرجه البخاري (7544)، ومسلم (792)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) «المحلَّى» لابن حزم (3/ 250).

(4) «المغني» لابن قدامة (1/ 476).

(5) أخرجه مسلم (2699)، وأبو داود (1455)، وأحمد (2/252).

(6) أخرجه مسلم (2701).

(7) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (2354) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وحسَّنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (8/ 114)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (102)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (3085)، وانظر «السلسلة الصحيحة» (2645).

أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

نجيب جلواح



يَسعى الشِّيعةُ الرَّوافضُ جاهدين في تَشويهِ صَفحاتِ التَّاريخِ الإسلامي، والنَّيلِ من صحابة رسولِ الله ﷺ الطَّاهرين، ونَشْرِ الرِّوايات الباطلة عنهم، واختلاقِ الأخبارِ المكذوبةِ الَّتي تَقدحُ فيهم، ومُحاولةِ تصويرِ تلك القُرونِ المُفضَّلةِ على أنَّها حقبةٌ من الزَّمنِ سادها الصِّراعُ على السُّلطةِ، والتَّناحُرُ لأجل الحُكم والسِّيادة، وأنَّ بعضَهم اغتصب حقَّ غيره في الخلافة، فتعيَّن علينا. بعد هذه الحملة المسعورة. أنْ نذودَ عن حياضهم ونُدافعَ عنهم، وخيرُ ما نَسلكُه لهذا الدِّفاع: هو تعريف النَّاس بسيرَ أولئك الأعلام من الصَّحابةِ الكرام، وعلى رأسِهم: الخُلفاءُ الرَّاشدون الأربعةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أجمعين.

ومنهم أحدُ كبارِ عُلماء الصَّحابة، وأحدُ أصْهارِ النَّبيِّ ﷺ، وأوَّلُ الخُلفاء الرَّاشدين، وأوَّل العَشرة المُبشَّرين بالجنَّة، ومن السَّابقين الأوَّلين: إنَّه صاحبُ رَسولِ الله ﷺ، وخليفتُه من بعدِه، أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه.

◎ اسمُه ونسبُه:

هو عبدُ اللهِ بنُ أبي قُحافةَ عُثمانَ ابنِ عامرِ بنِ عمرِو بنِ كعبِ بنِ سعدِ بنِ تيمِ بنِ مُرَّةَ بنِ كعبِ بنِ لُؤيٍّ ابنِ غالبٍ القُرَشيِّ التَّيْمِي، يَلتقي مع رسول الله ﷺ في مُرَّةَ بنِ كعبٍ[1].

◎ لقبُه:

لُقِّب أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بـ(العَتيق) وقيل: هو اسمُه، والصَّحيحُ المشهورُ أنَّ اسمَه: عبدُ اللهِ، والصَّوابُ الَّذي عليه كافَّةُ العلماء: أنَّ (عتيقًا): لقبٌ له لا اسمٌ، وإنَّما لُقِّب به: لعتقه من النَّار[2]؛ كما دلَّ عليه حديثُ التِّرمذي (3679) [وهو في «صحيح التِّرمذي» (2905)] عن عَائشةَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتَ عَتِيقُ اللهِ مِنَ النَّارِ» فَيَوْمَئِذٍ سُمِّيَ عَتِيقًا».

كما لُقِّب أيضًا بـ(الصِّدِّيق): لأنَّه بادر إلى تصديق رَسولِ اللهِ ﷺ، ولازمَ الصِّدْقَ، فلم تَقع منه هفوة في حالٍ من الأحوال، وكانت له في الإسلام المواقفُ الرَّفيعةُ، منها: قصَّتُه يوم ليلة الإسراء والمعراج، وجوابه للكفَّار؛ فقد أخرج الحاكم (4458) [وهو في «الصَّحيحة» (306)] عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «لَمَّا أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصَى

(1) انظر: «تاريخ الخُلفاء» للسُّيوطي (ص26).
(2) انظر: «تاريخ الخُلفاء» للسُّيوطي (ص26).

أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بذَلكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانَ آمَنُوا به وَصَدَّقُوهُ، وَسَعَى رِجَالٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِذَلِكَ إِلى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ، قَالَ: أَوَ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلى بَيْتِ المَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غَدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ: أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه».

هذا، وقد لَقَّبه رسولُ الله ﷺ أيضًا بالصِّدِّيق؛ كما روى ذلك البخاري (3699) عن أَنَس رضي الله عنه قَالَ: صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ أُحُدًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، فَرَجَفَ، وَقَالَ: «اسْكُنْ أُحُدُ - أَظُنُّهُ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ - فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلاَّ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ»، ولا خلاف في أنَّ الصِّدِّيقَ: هو أبو بكر رضي الله عنه.

◎ مَولدُه ونشأته:

وُلد أبو بكر رضي الله عنه بعد مَولد النَّبيِّ ﷺ بسَنتَيْن وأشْهُر، وكان مَنْشؤُه بمكَّة، لا يَخرُج منها إلاَّ لتجارة، وكان ذا مالٍ جزيل، ومُروءة تامَّة، وإحسانٍ وتفضُّل[3]؛ حتَّى قال له ابنُ الدَّغِنَةِ - وهو سيِّدُ القَارة - حين أخرجه قومُه: «فَإِنَّ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، إِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»، أخرجه البخاري (3905) عن عائشةَ رضي الله عنها.

◎ إسلامُه:

أبو بكر رضي الله عنه أوَّلُ مَن أَسلمَ من الرِّجالِ؛ أخرج التِّرمذي (3667) [وهو في «صحيح التِّرمذي» (2898)] عن أبي سعيد قال: قال أبو بكر: «أَلَسْتُ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا؟ [يعني: الإمارة] أَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ؟ أَلَسْتُ صَاحِبَ كَذَا، أَلَسْتُ صَاحِبَ كَذَا؟».

وقد شهد له رسولُ الله ﷺ بالسَّبق للإسلام؛ روى البخاري (4640) عن أبي الدَّرداء - مرفوعًا -: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي؟ إِنِّي قُلْتُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ».

وقد صَحب أبو بكر رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ من حين أَسْلَمَ إلى أنْ تُوفِّي رَسولُ الله ﷺ، لم يُفارقه سَفرًا ولا حضرًا، إلاَّ فيما أذن له ﷺ في الخُروج فيه، من نحو حجٍّ أو غَزو، وقد شَهدَ معه المشاهدَ كلَّها[4].

◎ هجرتُه:

هاجر أبو بكر رضي الله عنه مع رَسول الله ﷺ وترك عِيالَه وأهلَه وولَده، ولازمَه في الغار وسائر طريقه، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠)﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]. وروى البخاري (3653) ومسلم (2381) عن أنس بن مَالك: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلى أَقْدَامِ المُشْرِكِينَ عَلَى رُؤُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا».

◎ شجاعتُه:

كان الصِّدِّيقُ رضي الله عنه على شجاعة وإقدام عَظيمَين، يَظهر جانبٌ منهما فيما رواه البُخاري (3678) عَنْ عُرْوَةَ ابنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «سَأَلْتُ عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ المُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: رَأَيْتُ عُقْبَةَ بنَ أَبِي مُعَيْطٍ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: 28]».

◎ جُودُه وكرمُه:

كان أبو بكر رضي الله عنه كريمًا جوادًا بذَّالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونُصرة رسول الله ﷺ فاستحقَّ بذلك مَدْحَ الله تعالى، فأثنى عليه ربُّه خيرًا - في كتابه - لعطائه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧)﴾ [سُورَةُ اللَّيْلِ]، وقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾ [سُورَةُ اللَّيْلِ].

قال ابنُ كثير في «تفسير القُرآن العظيم» (409/8): «وقد ذَكرَ غيرُ واحد من المفسِّرين أنَّ هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه حتَّى إنَّ بعضَهم حكى الإجماعَ من المُفسِّرين على ذلك، ولا شكَّ أنَّه داخلٌ فيها، وأَوْلى الأُمَّة بعُمومها، فإنَّ لفظَها لفظُ العُموم».

ولقد نفعَ أبو بكر رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ بماله ما لم يَنفعْه مالُ غيره؛ روى ابن ماجه (3667) [وهو في «صحيح

---

(3) انظر: «تاريخ الخُلفاء» للسُّيوطي (ص28).

(4) انظر: «تهذيب الأسماء واللُّغات» للنَّووي (183/2).

الجامع» (5808)] عن أبي هريرةَ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ، مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ» قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ! هَلْ أَنَا وَمَالِي إِلاَّ لَكَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟!».

وضَربَ الصِّدّيقُ رضي الله عنه المثلَ في الجُودِ والعطاءِ، حتَّى سَبقَ غيرَه من الصَّحابة، فأعجزهم أنْ يَفعلوا مثلَه؛ روى أبو داود (1680) والتِّرمذي (3675) [وهو في «صحيح التِّرمذي» (2902)] عن عُمَرَ ابن الخَطَّاب رضي الله عنه قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللّه ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالاً عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟» قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّه ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا».

◎ سَعَة علمه:

كان الصِّدِّيقُ أعلمَ الصَّحابة رضي الله عنهم وأذكاهم؛ روى البخاري (3904) ومسلم (2382) عن أَبِي سَعِيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللّه ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللّه ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلاَّ خُلَّةَ الإِسْلامِ، لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاَّ خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ».

وممَّا يدلُّ على عظم علمه: مُناظرتُه لبعض الصَّحابة رضي الله عنهم عندما لم يُوافقوه على مُقاتلته لمانعي الزَّكاة بعد موت رسول اللّه ﷺ، فحَجَّهم بالدَّليل والبُرهان؛ روى البخاري (7284) ومسلم (20) عن أبي هريرةَ قال: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللّه ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ؟ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ، فَمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلاَّ بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللّهِ» فَقَالَ: وَاللّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «فَوَاللّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ اللّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ».

وهذا يدلُّ على أنَّ أبا بكر رضي الله عنه أعلمُ الصَّحابة؛ لأنَّهم وَقفوا عن فَهْم الحُكم في المسألة إلاَّ هو، ثمَّ ظهرت لهم بمُباحثته لهم: أنَّ قولَه هو الصَّوابُ، فرجعوا إليه[5].

وكان الصِّدِّيقُ رضي الله عنه أَقرأَ الصَّحابة، أي: أَعلمَهم بالقُرآن؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قدَّمه إمامًا للصَّلاة بالصَّحابة، مع قوله ﷺ: «يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللّهِ» [مسلم (673)][6].

وكان رضي الله عنه ـ مع ذلك ـ أعلمَهم بالسُّنَّة، وبحديث رسول اللّه ﷺ ومُراده؛ روى البخاري (2731) ومسلم (1785) عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ قالا: خَرَجَ رَسُولُ اللّه ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ... فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللّهِ حَقًّا؟ قَالَ: «بَلَى» قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُوُّنَا

(5) انظر: «تهذيب الأسماء واللُّغات» للنَّووي (190/2).
(6) انظر: «الصَّواعق المُحرقة» لابن حجر الهيتمي (48/1).



عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى» قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي» قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العَامَ؟» قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ»، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ...» الحديث، فانظر وتأمَّل كيف توافقَتْ إجاباتُ الصِّدِّيق رضي الله عنه مع إجابات رسول الله ﷺ، وفي ذلك: دلالةٌ ظاهرةٌ على فقهه، وسَعَة علمه، ومَعرفته بهدي رسول الله ﷺ.

◎ ثباته ورزانته:

لقد ثبت أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يومَ وفاة النَّبيِّ ﷺ وخطبَ خُطبتَه المشهورةَ، فسكن النَّاسُ بعد اضطراب؛ روى البخاري (4454) عن عبد الله بن عبَّاس: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144] إلى قَوْلِهِ: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144] وَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلاَّ يَتْلُوهَا»، فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيِّبِ: أَنَّ عُمَرَ قَالَ: «وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلاَيَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ».

◎ مُبايعتُه خليفةً:

بُويِعَ أبو بكرٍ رضي الله عنه خليفةً بعد وفاة رسول الله ﷺ في سقيفة بني ساعدة؛ روى النَّسائي (777) [وهو في «صحيح النَّسائي» (749)] عن عبد الله بن مسعود قال: «لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتِ الأَنْصَارُ: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَأَتَاهُمْ عُمَرُ فَقَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَأَيُّكُمْ تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ؟ قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ».

◎ جَمعُه القرآنَ:

أبو بكر رضي الله عنه هو أوَّلُ مَن أمر بجمع القُرآن قبل جَمْع عُثمانَ بن عفَّانَ رضي الله عنه؛ روى البخاري (4679) عن زَيْد بن ثابت الأَنْصَاريِّ رضي الله عنه - وَكَانَ مِمَّنْ يَكْتُبُ الوَحْيَ - قَالَ: «أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ فِي المَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلاَّ أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فقال عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ، وَالعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: 128] إلى آخرِهِمَا، وَكَانَتِ الصُّحُفُ الَّتِي جُمِعَ فِيهَا القُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ».

◎ هو خيرُ الصَّحابة وأفضلُهم رضي الله عنهم:

قد أطبق عُظماءُ المِلَّة وعُلماءُ الأُمَّة على أنَّ أفضلَ النَّاس - بعد رسول الله ﷺ -: أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وحكى أبو مَنصور البغداديُّ الإجماعَ عليه[7]، وروى البخاري (3655) عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ ابنَ عَفَّانَ رضي الله عنهم»، وأخرجه الطَّبراني في «المعجم الكبير» (13132) عنه قال: «كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيٌّ: أَفْضَلُ

(7) انظر: «الصَّواعق المحرقة» لابن حجر الهيتمي (169/1)، «شرح مسلم» للنَّووي (148/15).

هـذه الأُمَّةِ ـ بَعْـدَ نَبِيِّهَا ـ: أَبُـو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَيَسْمَعُ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ وَلا يُنْكِرُهُ».

وممَّنْ كان يَشهدُ بهذا التَّرتيبِ: أَميرُ المؤمنـين عليُّ بنُ أبـي طالب ﷺ، فيقولُ بتفضيل الإمامَين أبي بكرٍ وعُمرَ ﷺ على مَن سِـواهم؛ روى البخاري (3671) عن محمَّد بـن عليِّ بن أبي طالـب ﷺ قَالَ: «قُلْتُ لأَبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: «أَبُو بَكْرٍ»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ» وَخَشِـيتُ أَنْ يَقُـولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: «مَا أَنَا إِلاَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ».

وفي هـذا ردٌّ مُفحِمٌ علـى الرَّوافضِ الَّذين يَزعمـون غيرَ هـذا، ويَنسـبون لعليٍّ ﷺ خلافَ هذا القولِ.

بـل قـد كان علـيٌّ ﷺ يُنكـرُ إنـكارًا شـديدًا علـى مَـن يُقـدِّم علـى الإمامَيْن غيرَهمـا، ويَتوعَّـدُه بالعُقوبـة؛ روى ابـن أبي عاصـم في «السُّنَّة» (993)، [وهو في «ظلال الجنَّة»] عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: «سَـمِعْتُ عَلِيًّا عَلى الْمِنْبَرِ، فَضَـرَبَ بِيَـدِهِ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ يَقُـولُ: بَلَغَنِـي أَنَّ قَوْمًا يُفَضِّـلُونِي عَلَـى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَلَـوْ كُنْتُ تَقَدَّمْتُ فِي ذَلِكَ لَعَاقَبْتُ فيه، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْعُقُوبَةَ قَبْلَ التَّقْدِمَةِ، مَنْ قَالَ شَيْئًا مِنْ هَذَا فَهُوَ مُفْتَرٍ، عَلَيْـهِ مَا عَلَـى الْمُفْتَرِي، إِنَّ خَـيْرَةَ النَّاسِ: رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ وَبَعْـدَ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا أَحْدَاثًا يَقْضِـي اللَّهُ فيها مَا أَحَبَّ».

قال الذَّهبيُّ في «سِـيَرِ أعلام النُّبلاء» (467/2) ـ مُعلِّقًـا علـى الآثـارِ السَّـابقة ـ: «هـذا مُتواترٌ عن عليٍّ ﷺ، فقبَّح اللهُ الرَّافضةَ».

وأخـرج أبـو داود (4632) [وهو في «صحيح أبي داود» (3873)] عن مُحَمَّد ـ يَعْنِي الفِرْيَابِيَّ ـ قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ [أي: الثَّـوري] يَقُولُ: «مَـنْ زَعَمَ أَنَّ عَلِيًّـا عَلَيْهِ السَّـلَامُ كَانَ أَحَقَّ بِالوِلَايَـةِ مِنْهُمَا [يعني: أبـا بكرٍ وعُمرَ] فَقَـدْ خَطَّأَ أَبَـا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَـارَ، وَمَا أُرَاهُ يَرْتَفِعُ لَهُ مَعَ هَذَا عَمَلٌ إِلى السَّمَاءِ».

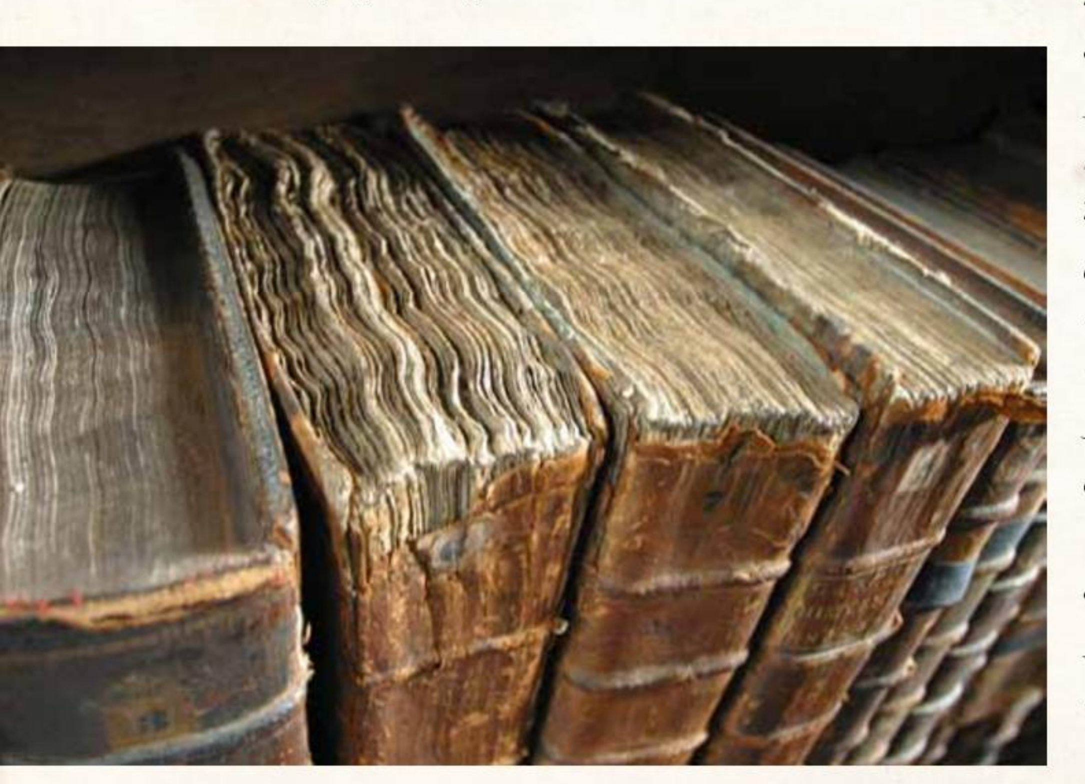
◎ هو أحبُّ النَّاس إلى النَّبيِّ ﷺ

كان أبـو بكـرٍ ﷺ أحـبَّ النَّـاس ـ مِـن الرِّجال ـ إلى رسـولِ الله ﷺ؛ روى البخـاري (3662) ومسـلم (2384) عن عمرِو بنِ العَاص ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُ عَلَـى جَيْشِ ذَاتِ السُّلاَسِـلِ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْـتُ: أَيُّ النَّاسِ أَحَـبُّ إِلَيْـكَ؟ قَـالَ: «عَائِشَـةُ»، فَقُلْـتُ: مِـنَ الرِّجَـالِ؟ فَقَـالَ: «أَبُوهَا»، قُلْتُ: ثُـمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ»، فَعَدَّ رِجَالًا».

وممَّـنْ صـرَّح بهـذه المنزلـة الرَّفيعةِ الَّتي تبوَّأَها الصِّـدِّيقُ: هـو أميرُ المؤمنين عُمرُ بـنُ الخطَّابِ؛ فقد أخـرج التِّرمذي (3656) [وهـو في «صـحيح التِّرمـذي» (2890)] عَـنْ عَائِشَـةَ عَـنْ عُمَـرَ بْـنِ الخَطَّـابِ قَالَ: «أَبُو بَكْرٍ سَـيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

◎ مِن فضائله:

لقد كان الصِّدِّيق أبو بكرٍ ﷺ سبَّاقًا للخـير، ما ترك بابًا من أبـوابِ الخير إلاَّ شارك فيه؛ لذا استحقَّ الجنَّةَ؛ روى مسلم (1028) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا، قَالَ: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟» قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا، قَالَ: «فَمَـنْ أَطْعَـمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْـكِينًا؟» قَالَ



أَبُـو بَكْرٍ ﷺ: أَنَا، قَالَ: «فَمَـنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًـا؟» قَـالَ أَبُو بَكْـرٍ ﷺ: أَنَا، فَقَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ: «مَـا اجْتَمَعْـنَ فِي امْـرِئٍ، إِلاَّ دَخَلَ الجَنَّـةَ». وروى الدِّينَوَرِي في «المجالسة» (2815) عَنِ الشَّعْبِي أَنَّهُ قَـالَ: «خَصَّ اللَّهُ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى أَبَا بَكْرٍ الصِّـدِّيقَ ﷺ بِأَرْبَعِ خِصَالٍ لَمْ يَخْصُصْ بِهَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ: سَـمَّاهُ الصِّـدِّيقَ وَلَمْ يُسَـمِّ أَحَدًا الصِّـدِّيقَ غَيْرَهُ، وَهُوَ صَاحِبُ الغَـارِ مَـعَ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَفِيقُـهُ فِي الهِجْرَةِ، وَأَمَرَهُ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ بِالصَّـلاةِ وَالْمُسْلِمُونَ شُهُودٌ».

◎ استخلافه عُمَرَ ابنَ الخطَّابِ ﷺ:

قد تفرَّس أبو بكر في عُمرَ بن الخطَّاب ﷺ فاستخلفه على المسلمين من بعده؛ روى البخاري (7218) ومسلم (1823) عَـنِ ابْنِ عُمَـرَ قَـالَ: «حَضَـرْتُ أَبِي حِينَ أُصِـيبَ، فَأَثْنَـوْا عَلَيْـهِ، وَقَالُـوا: جَـزَاكَ اللَّهُ خَـيْرًا، فَقَـالَ: رَاغِبٌ وَرَاهِـبٌ، قَالُوا: اسْتَخْلِفْ، فَقَالَ: أَتَحَمَّلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا، لَـوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الكَفَافُ، لا عَلَيَّ وَلا لِي، فَإِنْ أَسْـتَخْلِفْ فَقَد اسْـتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي -يَعْنِي: أَبَا بَكْرٍ- وَإِنْ أَتْرُكْكُمْ فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي: رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حِينَ ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ».

◎ وفاتُه والصَّلاةُ عليه ومُدَّةُ خِلافته:

تُوُفِّيَ أبـو بكر ﷺ ليلة الثُّلاثاء، وأَمَر بأَنْ يُكفِّنوه في ثلاثة أثوابٍ، اقتداءً بالنَّبيِّ ﷺ حيًّـا وميِّتًا؛ روى البخـاري (1387) عَنْ عَائِشَـةَ ﷺ قَالَـتْ: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: فِي كَـمْ كَفَّنْتُمُ النَّبِيَّ ﷺ؟ قَالَـتْ: «فِي ثَلاثَـةِ أَثْوَابٍ بِيضٍ سَـحُولِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلاَ عِمَامَةٌ، وَقَالَ لَهَا: فِي أَيِّ يَـوْمٍ تُـوُفِّيَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: يَوْمَ الاثْنَـيْنِ، قَالَ: فَـأَيُّ يَوْمٍ هَـذَا؟ قَالَتْ: يَوْمُ الاثْنَيْنِ، قَـالَ: أَرْجُو فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّيْلِ، فَنَظَـرَ إِلَى ثَوْبٍ عَلَيْهِ، كَانَ يُمَرَّضُ فِيهِ، بِهِ رَدْعٌ مِنْ زَعْفَرَانٍ، فَقَالَ: اغْسِلُوا ثَوْبِي هَذَا وَزِيـدُوا عَلَيْهِ ثَوْبَـيْنِ، فَكَفِّنُونِي فِيهَا، قُلْتُ: إِنَّ هَذَا خَلَقٌ، قَالَ: إِنَّ الحَيَّ أَحَقُّ بِالجَدِيدِ مِنَ المَيِّتِ، إِنَّمَا هُوَ لِلْمُهْلَةِ، فَلَمْ يُتَوَفَّ حَتَّى أَمْسَـى مِـنْ لَيْلَةِ الثُّلاَثَـاءِ، وَدُفِـنَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ».

ودُفِـن ﷺ ليـلاً وصـلَّى عليـه أميرُ المؤمنـين عُمرُ بـنُ الخطَّـابِ ﷺ؛ روى الطَّـبَراني في «المعجـم الكبـير» (35) عَنْ سَـعِيدِ بنِ المُسَيِّبِ قَالَ: «تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ وَهُـوَ ابْنُ ثَلاثٍ وَسِـتِّينَ سَـنَةً، وَوَلِيَ أَبُو بَكْرٍ سَـنَتَيْنِ، وَدُفِنَ لَيْلاً، وَصَـلَّى عَلَيْهِ عُمَـرُ ﷺ».

وروى ابـن أبـي شَـيبة في «المُصـنَّف» (11967) وعبـد الرَّزَّاق في «المُصـنَّف» (6576) عـن عُرْوَةَ قَالَ: «مَا صُـلِّيَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ إِلاَّ فِي المَسْجِدِ».

ودامت مُدَّةُ خلافته: سَـنتَين وأشهُرًا؛ روى أبو داود (4648) [وهو في «صـحيح أبي داود» (3882ـ 3883)] عَنْ سَـفِينَةَ قَـالَ: قَالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ: «خِلاَفَةُ النُّبُوَّةِ ثَلاَثُونَ سَـنَةً، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ المُلْكَ -أَوْ: مُلْكَهُ- مَنْ يَشَـاءُ»، قَالَ سَـعِيدٌ: قَالَ لِي سَفِينَةُ: أَمْسِـكْ عَلَيْـكَ: أَبَـا بَكْـرٍ سَـنَتَيْنِ، وَعُمَرَ عَشْرًا، وَعُثْمَانَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَعَلِيٌّ كَذَا».

وروى الحاكـم في «المسـتدرَك» (4417) [وسـكت عنـه الذَّهبـي في «التَّلخيـص»] عَـنِ ابْـنِ عُمَـرَ ﷺ قَالَ: «وَلِيَ أَبُـو بَكْـرٍ ﷺ فِي خِلافَتِـهِ: سَـنَتَيْنِ وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ».

◎ من أقواله المأثورة:

كان أبو بكر ﷺ إذا مُدِح قال: «اللَّهُمَّ أَنْتَ أَعْلَمُ مِنِّي بِنَفْسِـي، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُـمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي خَـيْرًا مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُـونَ، وَلاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ»[8].

وصَلِّ اللَّهمَّ وسـلِّمْ وباركْ على عبدك ورسـولك محمَّـد، وعلـى آلـه وأزواجـه وذُرِّيته الأطهار، وارضَ اللَّهمَّ عن الأربعة الخُلفـاء، الأئمَّة الحُنفـاء: أبي بكر وعُمرَ وعُثمـانَ وعلـيٍّ، وعـن سـائر الصَّـحابَة الأبـرار، والتَّابعـين الأخيار، ومَـن تَبِعَهُمْ بإحسـانٍ إلى يوم الدِّين، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للَّه ربِّ العالمين.

□□□

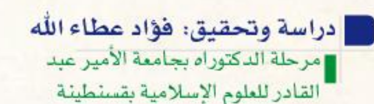
---

(8) انظر: «جامع الأحاديث» للسُّيوطي (45/25)، «كنز العُمَّال» لابن قاضي خان (529/12)، وروى البخاري في «الأدب المفرد» (761) [وهو في «صحيح الأدب المفرد» (589)]، عَنْ عَدِيِّ ابنِ أَرْطَاةَ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا زُكِّيَ قَالَ: ...» ذكره.



نَظْمُ ابْنِ غَازِي في الذَّبَائِحِ

لأبِي عَبدِ اللهِ مُحَمَّد بنِ أَحمدَ ابن غازِي العُثْمَانِيِّ المكْنَاسِيّ (ت: 919هـ) رَحِمَهُ اللهُ



دراسة وتحقيق: فؤاد عطاء الله
مرحلة الدكتوراه بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة

هـذه منظومـة في الذبائـح، تجمـع الأحـكام الفقهية المتعلقة بالمنخنقة وأخواتهـا. نظمهـا الإمـام أبـو عبد الله محمَّد ابن أحمـد بن غازي المالكي رحمه الله تعالى، وقد رأيت نشرها والعناية بها؛ لأنها لم تر النور من قبل، كما أنها احتوت -مـع لطافة حجمهـا- على غـرر الفوائد، ودرر الفرائد.

المطلب الأول: ترجمة النـاظـم

هو: محمَّدُ بـنُ أحمدَ بـن محمَّد ابنِ محمَّـد بنِ عليٍّ ابنِ غـازي، أبو عبد الله، العثماني نسـبةً إلى قبيلـة بني عثمان من كتامة، المكناسـي مولدًا ونشـأةً، الفاسي اسـتيطانًا ووفاةً، مؤرِّخٌ، وحاسـبٌ، وفقيهٌ من علماء المالكيَّة -رحمهم الله-.

نشـأ في بيت علم وصـلاح، ورحل إلى فاس طلبًـا للعلم، فتتلمذ علـى زمرة من خيرة علماء زمانه، ثمَّ رجع إلى مكناسة، فجلس للتَّدريس والإقراء، وتولَّى الخطابة بجامعهـا الأعظـم، ثـمَّ خـرج منهـا إلى فاس مرَّةً أخرى، وتـولَّى الخطابةَ بجامع القَروِيِّين، وتُوُفِّيَ بفاس سنة (919هـ).

لـه مؤلَّفاتٌ كثيرةٌ ونافعةٌ في القراءات والتَّجويـد والفقـه والحديـث والنَّحـو والعروض والتَّاريـخ والحسـاب، ذكـر أكثرَها بنفسـه في فهرس تحدَّث فيه عن شـيوخه ومُؤلَّفاتـه، وشـيءٍ من سـيرته، مطبـوع بعنـوان «فهرس ابـن غـازي»، ومؤلَّفاتُـه منهـا المطبـوع، والمخطـوط، والمفقود، وهذا بعضها:

- «إنشاد الشَّريد من ضوال القصيد» محقَّـق[1]، وهو كتـاب في القـراءات، فيه تقريرات على «الشَّاطبيَّة».
- «تحرير المقالة في مهمَّات الرِّسالة» مطبـوع، ويُطلَق عليها «نظائر الرِّسـالة»، وهي منظومة في نظائر «الرِّسالة» الفقهيَّة لابن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ اللهُ.
- «الرَّوض الهتون في أخبار مكناسة الزيتـون» مطبـوع، أورد فيه تاريـخ بلدته مكناسـة الزَّيتون، وسُـمِّيَت كذلك تمييزًا لها عن مكناسة تازة.
- «شـفاء الغليل في حلِّ مُقفَل خليل» مطبوع، تعليقات على «مختصر خليل».
- «الكلِّيَّات في الفقه» مطبوع.
- «إمتـاع ذوي الاسـتحقاق ببعض مراد المرادي وزوائد أبي إسحاق» مطبوع، وفيه نكت علـى «ألفيَّة ابن مالك رَحِمَهُ اللهُ» في النَّحو.
- «منظومة في البدع» مخطوط[2].
- «منظومة في الذَّكاة» وهي الَّتي بين أيدينا[3].

المطلب الثَّاني: التَّعريف بموضوع النَّظم

يتعلَّق موضـوعُ النَّظم بمسـألة فقهيَّة مـن مسـائل بـاب الذَّبائـح، وهـيَ الَّتـي يُلقِّبُها بعضُ الفقهاء بالمُنخَنِقة وأخواتها، ويقصـدون بذلـك اختـلاف الفقهـاء في تأثير الذَّكاة في الأصنـاف الخمسـة الَّتي نصَّـت عليها الآيةُ، وهي قـولُ الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا

(1) حقَّقه حسن العلمي في رسالة علمية بدار الحديث الحسنية بالرباط، ونوقشت سنة (1410هـ).

(2) منه نسخة محفوظة بمكتبة الجامع الأعظم بالجزائر العاصمة، ضمن مجموع رقم (77)، من الورقة (249) إلى الورقة (261).

(3) انظر ترجمته في: «فهرس ابن غازي» له، بتحقيق: محمَّد الزاهي، مقدِّمة تحقيق كتاب «شفاء الغليل» (1/ 45-92)، «هدية العارفين» لإسماعيل باشا البغدادي (2/ 67)، «الأعلام» للزِّركلي (5/ 336)، «معجم المؤلفين» لكحالة (9/ 16).

﴿بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: 3].

والمنخنقة وأخواتها خمسة أصناف هي:

المنخنقة: وهي الَّتي تموت خنقًا، وهو حبس النَّفس، سواء فعل بها ذلك آدمي، أو اتَّفق لها ذلك في حبل ونحوه.

والموقوذة: وهي الَّتي تُرمى أو تُضرَب بالعصا أو الحجر حتَّى تموت من غير تذكية.

والمتردِّية: وهي الَّتي تتردَّى من العلوِّ فتموت من غير تذكية، سواء كان من جبل أو في بئر ونحوه، وسواء تردَّت بنفسها أو ردَّاها غيرُها.

والنَّطيحة: وهي الَّتي تَنطَحُها أخرى، فتموت قبل أن تُذكَّى.

وما أكل السَّبُعُ: كلُّ ما افترسه ذو ناب وأظفار من الحيوان؛ كالأسد، والنَّمر، والثَّعلب والذِّئب، والضَّبُع، ونحوها[4]

هذا؛ وقد وُفِّقَ النَّاظم رحمه الله في الوصول إلى مراده، فجاء نظمُه مُنسَّقًا، مُشتملاً على أهمِّ الجزئيَّات الفقهيَّة المتعلِّقة بحكم ذكاة المُنخَنقَة وأخواتها، مُوضِّحًا أبرز الصُّور المشكلة فيها، كما حرص على عزو بعض الأقوال إلى أمَّهات الكتب الفقهيَّة في المذهب المالكي كـ«المدوَّنة الكبرى» للإمام مالك رحمه الله و«رسالة ابن أبي زيد القيرواني» رحمه الله.

وقد تألَّف النَّظمُ من خمسة وعشرين بيتًا، على بحر الرَّجَز، افتتحها النَّاظم بحمد الله تعالى، والصَّلاةُ والسَّلامُ على النَّبيِّ ﷺ، ثمَّ شرع يُبيِّن أحكامَ المنخنقة وأخواتها على مذهب الإمام مالك وأصحابه - رحمهم الله -، وقد احتوى النَّظمُ على المسائل الآتية:

- حكم ذكاة المنخنقة أو إحدى أخواتها إذا نفذت مقاتلها، وغلب على الظَّنِّ أنَّها لا تعيش.
- صور نفاذ المقتل بقسميها: المُتَّفق عليها، والمختلف فيها.
- حكم ذكاة المنخنقة أو إحدى أخواتها الَّتي لم تنفذ مقاتلها، ولكن أيست من الحياة.
- حكم ذكاة المنخنقة أو إحدى أخواتها الَّتي لم تنفذ مقاتلها، وتحقَّقت حياتها.
- حكم أكل المنخنقة المُذكَّاة أو إحدى أخواتها إذا حصل شكٌّ في سبب موتها: أهو الذَّكاةُ أم سببٌ آخر كالخنق ونحوه؟
- علامات وجود الحياة في المنخنقة وأخواتها، مع تحديد الوقت الَّذي تراعى فيه تلك العلامات.
- عرض لبعض الصُّوَر المشكلة في علامات الاستدلال على حياة المنخنقة وأخواتها.
- حكم ذكاة المريضة.
- حكم ذكاة الصَّحيحة الَّتي ألمَّ بها وجعٌ أشرفت به على الموت.

ثمَّ ختم الإمامُ ابنُ غازي رحمه الله نظمَه بحمد الله تعالى، وحسن الثَّناء عليه.

المطلب الثَّالث: تحقيق عنوان النَّظم

عنوان النَّظم كما جاء في إحدى النُّسخ الخطِّيَّة هو: «نظم ابن غازي في الذَّبائح»[5]، وأمَّا الدرعي[6] صاحب: «الرَّوض الفائح في بيان صفة الذَّبائح»[7]، وهو شرح لهذا النَّظم الَّذي بين أيدينا، فلم يُلقِّبْه بعنوان مُحدَّد، وإنَّما ذكر أنَّه تصدَّى لشرح أبيات في بيان ذكاة المنخنقة وغيرها للإمام ابن غازي رحمه الله.

والظَّاهر - والله أعلم - أنَّ الإمامَ ابنَ غازي رحمه الله لم يُطلقْ على منظومته عنوانًا مُحدَّدًا، وإنَّما نَظَمَ هذه الأبياتَ فحفظَها النَّاس، وتناقلوها عنه.

المطلب الرَّابع: تحقيق نسبة النَّظم إلى الإمام ابنِ غازي رحمه الله

وأمَّا نسبة النَّظم إلى الإمام ابنِ غازي رحمه الله فهي ثابتة من عدَّة أوجه:

الأوَّل: تصريحُ الإمام ابن غازي رحمه الله باسمه في مُطلَع النَّظم حيث قال:

قال ابنُ غازي واسمُهُ مُحمَّدُ
اللهَ ربِّي الكريمَ أحمدُ

الثَّاني: أنَّ هذا البيتَ الَّذي جعلَه مَطلَعًا لنظمه هذا في الذَّبائح هو عينه الَّذي افتتح به منظومته: «نظائر الرِّسالة»[8]، وهي مقطوعٌ بصحَّة نسبتِها

---

(4) انظر تعريف المنخنقة وأخواتها في: «النوادر والزيادات» لابن أبي زيد القيرواني (4/ 369)، «أحكام القرآن» لابن العربي (7/ 4)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (6/ 48)، «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310)، «مناهج التحصيل» لأبي الحسن الرَّجراجي (3/ 242)، «الشرح الكبير» للدَّردير (2/ 113)، «الثمر الداني» للآبي الأزهري (1/ 402)، «الموسوعة الفقهية الكويتية» (41/ 300).

(5) وهي النسخة التي جعلتها الأصل.

(6) الدرعي (كان حيًّا سنة 1206هـ): داود بن أحمد بن داود الأغيلي، أبو سليمان، ولم أجد له ترجمة وافية.

(7) له عدة نسخ خطِّيَّة منها:
نسختان محفوظتان في «الخزانة العامة» بالرباط - المغرب: الأولى: رقمها (869د)، والثانية: رقمها (2186د/4).
نسخة في الخزانة العامة بتطوان - المغرب، رقمها (1494).
نسخة محفوظة في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات بالرياض - السعودية، رقمها (10977).
نسختان محفوظتان في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي - الإمارات: الأولى رقمها (251531)، والثانية: رقمها (375269).

(8) انظر: «تحرير المقالة شرح نظم نظائر الرسالة» للحطَّاب (ص16).

إليه، ويستبعد أن يوجد هذا التَّطابقُ بين مطلع المنظومتَيْن مع تغاير ناظمهما.

الثَّالث: نُسِب النَّظم للإمام ابن غازي رَحِمَهُ اللَّهُ في عنوان إحدى النُّسخ الخطِّيَّة، وهي النُّسخة الَّتي جعلتُها الأصلَ.

الرَّابع: ونسبه له أيضا أبو سليمان الدرعي رَحِمَهُ اللَّهُ شارح المنظومة حيث قال في «الرَّوض الفائح في بيان صفة الذَّبائح» ما نصُّه: «أمَّا بعد؛ فهذا شرحٌ عجيبٌ مُفيدٌ - إن شاء الله - على أبياتٍ في بيان ذكاة المنخنقة وغيرِها للشَّيخ محمَّد بنِ أحمد ابن غازي»[9].

الخامس: كما نَسبَه للإمام ابنِ غازي رَحِمَهُ اللَّهُ عددٌ من المعاصرين الَّذين اعتنَوْا بتحقيق تراثه منهم: الأستاذ محمَّد الزَّاهي محقِّق «فهرس ابن غازي» (ص12)، والأستاذ حسين عبد المنعم بركات محقِّق «إتحاف ذوي الاستحقاق» (40/1)، والأستاذ أحمد بن عبد الكريم نجيب محقِّق «شفاء الغليل في حلِّ مُقفَلِ خليل» (87/1).

ومن المعاصرين الَّذين أثبتوا نسبةَ النَّظم للإمام ابنِ غازي رَحِمَهُ اللَّهُ الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله صاحب «معلمة الفقه المالكي» (ص221).

المطلب الخامس: وصف النُّسخ الخطِّيَّة المُعتمَدة في التَّحقيق

اعتمدت في تحقيق هذا النظم على أربع نسخ خطية محفوظة في «مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء»، إليك وصفها:

النسخة الأولى: محفوظة ضمن مجموع، تحت رقم: (ms352-M5)، وهي نسخة حسنة، سليمة كلها، تقع في ورقة واحدة، وخطها مغربي.

وهي النسخة التي جعلتها الأصل؛ وذلك أن ناسخها أثبت عنوان النظم في بداية المخطوطة، ونسبه إلى الإمام ابن غازي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أمر مهم انفردت به على سائر النسخ التي اعتمدت عليها.



صورة الوجه الأول من الأصل.

○ ○ ○

النسخة الثانية: محفوظة تحت رقم: (ms327-M6)، وهي نسخة حسنة سليمة، تقع في وجه واحد، وخطها مغربي، وأشرت لها بالحرف: (س).



صورة النسخة (س)

○ ○ ○

النسخة الثالثة: محفوظة ضمن مجموع، تحت رقم: (ms473-M3)، وهي نسخة حسنة، تقع في ورقة واحدة، خطها مغربي رديء، ورمزت لها بالحرف (ع).



صورة الوجه الثاني من النسخة (ع)

○ ○ ○

النسخة الرابعة: وهي شرح لنظم ابن غازي رَحِمَهُ اللَّهُ، مؤلفه مجهول، محفوظة تحت رقم: (ms563-M2)، وهي نسخة حسنة، تقع في ثلاث ورقات، خطها مغربي، ورمزت لها بالحرف (ش).



صورة الوجه الأول من النسخة (ش)

○ ○ ○

(9) انظر: بداية المخطوط ونهايته في «خزانة الماجد للتراث» (ص29).

النصّ المحقّق:

[نَظْمُ ابنِ غَازِي فِي الذَّبَائِحِ][*]

1. [قَالَ ابـنُ غَـازِي واسْـمُـهُ مُـحمَّدُ — (الله ربِّـــيَ)[1] الـكَـرِيمَ أَحْـمَـدُ][2]

2. [الــحَـمْـدُ لله عَــلَـى الــدَّوَام — حَـمـدًا يُـوَايِفِي جُـمْـلَـةَ الإنـعَـام][3]

3. [ثُـمَّ الـصَّـلاةُ والسَّـلامُ سَـرْمَـدَا — عَـلَـى الـنَّـبِـيِّ الـعَـرَبِـيِّ أَحـمَـدَا][4]

4. [وَبَـعـدُ: خُــذْ][5] مَـا جَـاءَ فِي المُنْخَنِقَهْ — وَأَخَـوَاتِـهَـا صَحِيحًا [حَـقَّـقَـهْ][6]

5. إنْ نَـفَـذَت فِـيهَـا المَقَـاتِـلُ اشْتَهَرْ — المَـنـعُ فِيهَـا عِـنـدَ مَـالِـك ظَـهَـرْ[7]

6. ثُـمَّ المَـقَـاتِـلُ انـتِـثَـارُ الحَشْـوَة — قَـطْـعُ [الـدِّمَـاغ وَالـنُّـخَـاع][8] إخْـوَة

7. وَقَطْعُ مَسْلَك [الشَّرَابِ والطَّعَام][9] — [ثُـمَّ انـقِـطَـاعُ][10] الـوَدَجَـيْنِ بالتَّمَام

8. والخُلْفُ[بَيْنَهُم][11] فِي[شَقّ][12] الوَدَجَيْنِ/[13] — وَمَسْـلَـك الـشَّـرَاب أَيْـضًـا دُونَ مَـيِن

9. وَثَـقْـبُ كَـرْشٍ وَانْـدِقَـاقُ العُـنُق — فَـهَـذه [عِـدَّتُـهُـم][14] [فَـحَـقِّـق][15][16]

10. فَـإن تَـكُـنْ لَمْ تَـنـفَـذ المَقَـاتِـل — وَأَيِـسَــتْ فَـقُـل لِـكُـلِّ سَـائِـل

11. إن ذُكِّيَـتْ [الأَكْــلُ][17] فِي المُدَوَّنَـهْ — وَ[المَـنـعُ][18] فِي الرِّسَالَة المُبَيَّنَـهْ/[19][20]

12. [فَــإن][21] تَكُنْ حَيَاتُهَا قَدْ حُقِّقَتْ — [فَـفِـي المُـدَوَّنَـة قَـالُـوا:][22] أُكِـلَـتْ[23]

13. [إن][24] شَكَّ فِي الحَيَاة فِي[ذَاكَ][25] نَظَرْ — رِوَايَتَانِ[الأَكْلُ وَالمَنْعُ][26] [اشْتَهَرْ][27][28]

14. عَـلامَـةُ الحَـيَـاة عِـنـدَ العُـلَمَـا — [حَـرَكَـةُ][29] الأَطْـرَاف مَـعْ سَـيْل الـدِّمَـا

15. مِـثْـلُ عُـرُوق [عُـنُـقِـهَـا][30] وَأُذْنِـهَـا — أَوْ رِجْـلِـهَـا أَوْ طَـرَفَـتْ بِـعَـيْـنِـهَـا[31]

16. [يُعتَبَرُ][32] التَّحْرِيكُ فِي حَالِ الذَّكَاةْ — أَوْ[قَبلَهَا أَو بَعدَهَا][33] [بالقُرب ءَاتْ][34] [35]

17. إن وُجِـدَ الـتَّحْرِيكُ وَالـدَّمُ الحَـيَـاةْ — إنْ [عُـدِمَــا][36] مَـعًـا فَـحَـقِّـق المَـمَـاتْ

18. [وَإنْ][37] يَكُنْ سَيْلُ الدَّم [مُعَيَّنَا][38] — مِـنْ غَـيْـرِ تَحْـرِيـك حَـرَامٌ، [بَـيِّـنَـا][39]

19. إذَا تَحَـرَّكَـتْ وَدَمُـهَـا امْـتَـنَـعْ — قَـوْلانِ يَـا أَخِـي فَـمَـا شِئْتَ اتَّـبِـعْ[40][41]

20. ثُـمَّ المَرِيضَـةُ حَـرَامٌ لا [شَـطَـطْ][42] — إن وُجِـدَ الـدَّمُ بِـلا تَحْـرِيـك قَـطْ

21. [وَإن (يَكُ)[43] التَّحْرِيكُ مِنْ غَيْرِ الدِّمَا — فَـأَكْـلُـهَـا يَـجُـوزُ عِـنـدَ العُلَمَا][44][45]

22. ثُـمَّ الـصَّحِيحَـةُ هُـنَـا مَحْـكِـيَّـهْ — إنْ [عَـجَّـلَـتْـهَـا][46] يَـا أَخِـي المَـنِـيَّـهْ

23. يَكْفِيكَ [يَا أَخِي إحْـدَى][47] العَلامَاتْ — مِمَّـا ذَكَـرْتُ [قَبْلَ ذَا][48] [بِـالأَبْـيَـاتْ][49]

24. سَيْلُ[الدِّمَا][50]مِن غيرِ تحريكِ[الطَّرَفْ][51] — أو [التَّحَرُّكُ][52] بِلا [الـدَّم][53] اتَّصَفْ[54]

25. [وَهَـا هُـنَـا انـتَـهَـى الـذِي أَرَدْنَـا — والحَـمْـدُ لله الـذِي أَرْشَـدَنَـا][55]

(*) سقطت من (س)، و(ع)، و(ش).

(1) في (س): فربي الله.

○ ○ ○

(2) سقط البيت برمته من الأصل، ومن (ع)، والزيادة من (س)، و(ش).

○ ○ ○

(3) سقط البيت برمته من (ع).

○ ○ ○

(4) سقط البيت برمته من (س). وفي (ش) جاء بدلا منه هذان البيتان:

ثم صلاة الله بالتمام

على النبي أفضل الأنام

وآله وصحبه ذوي الشرف

وتابعهم خلفا بعده سلف

○ ○ ○

(5) في (ع): القول في.

○ ○ ○

(6) في (ع): حقيقا.

○ ○ ○

(7) بين الناظم رحمه الله في هذا البيت حكم المنخنقة الّتي نفذت مقاتلها، وقد صرّح بأنّ المشهورَ عن الإمام مالك رحمه الله حرمةَ أكلِها، وأنّ الذّكاة لا تعمل فيها.

هذا؛ وقد نقل ابنُ رشد رحمه الله الاتّفاقَ في المذهب على منع الأكل في هذه الحال، وحكى فيها اللّخمي قولَيْن في المذهب، والجواز مرويٌّ عن ابنِ القاسم وأصبغ، والمنع مرويٌّ عن ابنِ عبد الحكم وابنِ الماجشون، وقد أجاز أكلها من الصّحابة علي ابن أبي طالب وابنُ عباس رضي الله عنهم.

انظر: «المدونة الكبرى» للإمام مالك (545/1)، «التّفريع» لابنِ الجلّاب (403/1)، «النّوادر والزّيادات» لابن أبي زيد القيرواني (369/4)، «التّمهيد» لابنِ عبدِ البرّ (141/5)، «المُنتَقى» للباجي (114/3)، «أحكام القرآن» لابنِ العربي (9/7)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (50/6)، «البيان والتّحصيل» لابنِ رشد الجدّ (291/3)، «بداية المجتهد» لابن رشد الحفيد (440/1)، «عقد الجواهر الثمينة» لابن شاس (595/1)، «القوانين الفقهية» لابنِ جزي (ص310)، «مناهج التّحصيل» لأبي الحسن الرَّجراجي (242/3)، «المعيار المعرب» للونشريسي (8/2).

○ ○ ○

(8) في (ش): النخاع والدماغ.

○ ○ ○

(9) في (ع): الطعام أيضا والشراب.

○ ○ ○

(10) في (ع): كذاك قطع.

○ ○ ○

(11) سقطت من (س).

○ ○ ○

(12) في الأصل، وفي (س)، وفي (ش): رشق. والمثبت من (ع).

○ ○ ○

(13) نهاية الوجه (أ) من (ع).

○ ○ ○

(14) في (س): عدتها. وفي (ع)، و(ش): عددها.

○ ○ ○

(15) في (ع): محقق.

○ ○ ○

(16) عدّد النّاظم رحمه الله في هذه الأبيات صور نفاذ المقتل، وقسّمها إلى قسمَيْن:

. المقاتل المُتّفق عليها وهي: انتثار الحشوة، وانتشار الدّماغ، وانقطاع النُّخاع، وخرق المصران أعلاه في مجرى الطّعام والشّراب، وقطع الأوداج.

. والمقاتل المُختَلَف فيها وهي: انشقاق الأوداج من غير قطع، انشقاق المصران، وثقب الكرش، واندقاق العنق من غير أن ينقطع النُّخاع.

انظر صور نفاذ المقتل في: «النّوادر والزّيادات» لابن أبي زيد القيرواني (369/4)، «المنتقى» للباجي (115/3)، «عقد الجواهر الثمينة» لابن شاس (596/1)، «الذّخيرة» للقرافي (128/4)، «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310)، «شفاء الغليل» لابن غازي (368/1)، «مناهج التحصيل» لأبي الحسن الرَّجراجي (243/3)، «المعيار المعرب» للونشريسي (10/2).

○ ○ ○

(17) في (ش): فالأكل.

○ ○ ○

(18) في (ع): الخلف.

○ ○ ○

(19) نهاية الوجه (أ) من الأصل.

○ ○ ○

(20) بيّن النّاظم رحمه الله في هذين البيتين حكمَ المنخنقة وأخواتِها الّتي لم تنفذ مقاتلُها، وأيست من الحياة، وقد صرح بوجود خلاف في المذهب، فنقل جواز الذكاة والأكل عن «المدونة»، والمنع عن «رسالة ابن أبي زيد القيرواني».

هذا؛ والجواز هو قولُ ابنِ القاسم

وأصبغ، والمنع قول ابنِ الماجشون وابنِ عبدِ الحكم. رحمهم الله جميعا..

انظر: «المدونة الكبرى» للإمام مالك (545/1)، «النوادر والزيادات» لابن أبي زيد القيرواني (370/4)، «البيان والتحصيل» لابن رشد الجد (291/3)، «بداية المجتهد» لابن رشد الحفيد (440/1)، «عقد الجواهر الثمينة» لابن شاس (595/1)، «الذخيرة» للقرافي (128/4)، «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310)، «شفاء الغليل» لابن غازي (367/1)، «مناهج التحصيل» لأبي الحسن الرَّجراجي (245/3)، «المعيار المعرب» للونشريسي (8/2).

ooo

(21) في (س): وإن.

ooo

(22) في (ع): فحكمها بالاتفاق.

ooo

(23) بيَّن النَّاظم رحمه الله في هذا البيت حكم المنخنقة وأخواتها التي لم تنفذ مقاتلها، وتحققت حياتها، وقد صرح بجواز ذكاتها وأكلها نقلا عن «المدونة».

وقد نقل الإجماع على جواز الذَّكاة في هذه الحال: الإمامُ ابنُ حزم رحمه الله في «مراتب الإجماع» (ص172)، ولم يتعقبه شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في نقده لمراتب الإجماع، مما يدُلُّ على صحَّته عنده، ونقله أيضًا: ابنُ رشد الحفيد رحمه الله في «بداية المجتهد» (1097/2)، وابن جُزَي في «القوانين الفقهية» (ص310)، وانظر: «المنتقى» للباجي (115/3)، «المعيار المعرب» للونشريسي (8/2).

ooo

(24) في (س): من.

ooo

(25) في (س)، و(ع)، و(ش): هذا.

ooo

(26) في (س): المنع والأكل.

ooo

(27) في (ع): ظهر.

ooo

(28) بيَّن النَّاظم رحمه الله في هذا البيت حكم المنخنقة الَّتي حصل شكٌّ في سبب موتها: أهو الذكاة، أم الخنق ونحوه؟ وقد صرَّح بورود روايتين: جواز الذَّكاة والأكل، والمنع منهما، والثَّاني هو المشهور.

انظر: «البيان والتحصيل» لابن رشد الجد (291/3)، «بداية المجتهد» لابن رشد الحفيد (440/1)، «عقد الجواهر الثمينة» لابن شاس (595/1)، «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310).

ooo

(29) في (ع): تحريك.

ooo

(30) في (س)، و(ع): حلقها.

ooo

(31) بيَّن النَّاظم رحمه الله في هذين البيتين العلامات التي يستدل بها على وجود الحياة في المنخنقة وأخواتها، فذكر ثلاثة منها هي: سيلان الدم، حركة الأطراف كالركض باليد أو الرجل، وطرف العين.

هذا؛ وقد أغفل الناظم رحمه الله علامتين أخريين هما: تحريك الذنب، وخروج النفس، مع أنه أشار إليهما في «شفاء الغليل» (368/1).

انظر: «النَّوادر والزِّيادات» لابن أبي زيد القيرواني (370/4)، «التَّمهيد» لابنِ عبدِ البرِّ (141/5)، «المنتقى» للباجي (114/3)، «أحكام القرآن» لابنِ العربي (9/7)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (51/6)، «البيان والتحصيل» لابن رشد الجد (291/3)، «الذخيرة» للقرافي (127/4)، «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310)، «مناهج التحصيل» لأبي الحسن الرَّجراجي (242/3).

ooo

(32) في (س): واعتبر.

ooo

(33) في (س)، و(ش): بعدها أو قبلها.

ooo

(34) في (س): في القربات، وفي (ع): بالقربات.

ooo

(35) بيَّن النَّاظم رحمه الله في هذا البيت الوقت الَّذي تراعى فيه علامات الحياة، وقد صرَّح بأنَّ العلامةَ معتبرةٌ قبل الذبح أو معه أو بعده.

انظر: «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310).

ooo

(36) في (ع): عدم.

ooo

(37) في (ع): فإن.

ooo

(38) في الأصل، وفي (ع)، و(ش): معين. والمثبت من (س).

ooo

(39) في الأصل، وفي (ع)، و(ش): بين. والمثبت من (س).

ooo

(40) في (ش): اختلاف في ترتيب الأبيات، حيث ورد البيت (18)، ثم البيت (19)، ثم البيت (17).

ooo

(41) بيَّن النَّاظم رحمه الله في هذه الأبيات الثَّلاثة أحكام بعض الصور المشكلة في الاستدلال على وجود الحياة، وهي:

الأولى: إذا سال الدم، وتحركت أطرافها، فهما دليل على الحياة.

الثانية: إذا لم يسل الدم، ولم تتحرك أطرافها، فهما دليل على عدم الحياة.

الثالثة: إذا سال الدم وحده، ولم تتحرك أطرافها، فهما دليل على عدم الحياة، ولا يجوز أكلها.

الرابعة: إذا تحركت أطرافها، ولم يسل الدم، ففيها قولان: الجواز، والمنع، مع التخيير بينهما.

انظر: «المنتقى» للباجي (115/3)، «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310)، «شفاء الغليل» لابن غازي (367/1).

ooo

(42) في (ع): لا شك.

ooo

(43) في (ع): يكن.

ooo

(44) المثبت من (س)، و(ع). وفي الأصل:

وإن يكن التحريك بانفراده

فكلها باتفاق أيضا يا [...]

ooo

(45) بيَّن النَّاظم رحمه الله في هذَيْن البيتَيْن حُكمَ المريضة، وصرَّح بأنَّه لا يجوز أكلُها إذا سال الدَّم وحده، من غير تحريك أطرافها، وأمَّا إذا تحرَّكت أطرافُها، ولم يسِل الدَّم، فيجوز ذكاتها وأكلها.

انظر: «النَّوادر والزِّيادات» لابن أبي زيد القيرواني (369/4)، «المنتقى» للباجي (114/3)، «أحكام القرآن» لابن العربي (16/7)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (51/6)، «البيان والتَّحصيل» لابن رشد الجد (294/3)، «بداية المجتهد» لابن رشد الحفيد (442/1)، «عقد الجواهر الثمينة» لابن شاس (595/1)، «الذخيرة» للقرافي (127/4)، «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310)، «مناهج التحصيل» لأبي الحسن الرَّجراجي (242/3)، «المعيار المعرب» للونشريسي (30/2).

ooo

(46) في (س): عاجلتها.

ooo

(47) في (س)، و(ش): فيها أحد. وفي (ع): فيه أحد.

ooo

(48) في (ش): قبلها.

ooo

(49) في (س)، و(ع): في الأبيات.

(50) في (ش): دم.

ooo

(51) في (س): طرف.

ooo

(52) في (ع): تحرك، وفي (ش): التحريك.

ooo

(53) في (س)، و(ع): دم، وفي (ش): دام.

ooo

(54) بيَّن النَّاظم رحمه الله حكمَ الصَّحيحة الَّتي يعرض لها وجع تشرف به على الموت فتذكى، وصرح بأنه يجوز أكلها بشرط ظهور علامة واحدة من علامات الحياة، ويكفي سيلان دمها، ولو لم تتحرك أطرافها.

انظر: «المنتقى» للباجي (114/3)، «الذخيرة» للقرافي (127/4)، «القوانين الفقهية» لابن جزي (ص310)، «شفاء الغليل» لابن غازي (367/1)، «مناهج التحصيل» لأبي الحسن الرجراجي (242/3).

ooo

(55) سقط البيت برمته من (ع).

مقامة التَّاريخ

عيسى عزوق
مرحلة الدكتوراه. الجزائر

حدَّثنا عيسى بن عبد الرَّحمن قال: لو قيل لي صِفْ لنا التَّاريخَ لو في هيئة رجل تمثَّل، أو في صفة من كان قائدًا جَمعَ مُتفرِّقَ المجد فَتأصَّل وتَأثَّل، وما تقول فيه لو بدا لنا من وراء الحُجُب يطَّلع على أحوال ما يُدال بنا وعلينا من حيث يرانا ولا نراه، أَتَراه يتبدَّد مجموع أمجاده في حيرته فَتَنفَصِم عُراه؟ أتحسب أنْ سينطِقُ بالحقائق المريرة، لمَّا يقيس الغابر بالحاضر أم يستعير من اللَّيل مُقلتَه الضَّريرة؟ ألا ترى وشيكًا سينحاز إلى صفٍّ من غزاهم صاحب «الضَّوء اللاَّمع» بـ«إعلان التَّوبيخ»؟ فيصير كحبِّ الشَّعير مذمومًا ومأكولاً بأسوإ طبيخ!؟

قلت. والله المُعِين. فيما أقول: أتمثَّلُ التَّاريخ في صورة المعقول والمنقول شيخًا كبيرًا يُخيَّل إلى رائيه أنَّه مضى من عمره آلاف السِّنين، منذ عهد أساطير الدِّينصور والتنِّين، وعالج من صنوف العباد، الحاضرَ منهم والبَاد، وأشرَفَ على أسرار علوِّ الأمم، ما به تشتدُّ العزائمُ والهِمَم، وأدرك من عِلَل الحضارات وأدوائها، ما يعصف بعللها وأهوائها، وأندى راحته المبسوطَة بالجود، لعلمه أن لو دَام المالُ بكفِّ مالكه لما بَعِدَت مدين كما بَعُدت ثمود. وقبض أيادي العزَّة عمَّن لا يراه لها أهْلاً، وأمسك عن تعليم من يَرضى بالجهل فيزيده غيًّا وجهلاً، وقلَبَ ظَهرَ المِجَنِّ لمن يرى بغِرَارَة اليَفَاع إقامة الدول يسيرًا وسهلاً، وضَنَّ بالحِكَم الَّتي ظَفَر مَرَائرَها بالتَّجارب الطِّوال عمَّن لا يعطيها حقَّها وإن يكن له من العشائر كَلْبًا وذُهْلاً، وأسلسل قيادَ نفسه طوعًا لمن سلك سبيل ذوي البصائر وردًا صافيًا عَلاًّ ونَهْلاً.

أتمثل هذا الشَّيخ متَّكئًا على عصا قُدَّت من خَطب الحِكم والعلوم، وصِيغَ لحَاؤُهَا بنُقَايَة الأفهام والحُلُوم، وكأنَّما أُعِدَّ صلابتها لترضَخَ رأس كلِّ جبَّار ظلوم، مضرَّجَة بالدِّماء شهادة على أنَّ كلَّ جَارح وإنْ بَعْدَ حين مَكلُوم، قد وضع الشَّيخ العَصا على عاتقه الهزيل، إشارةً إلى أنَّ الدَّهر لا تقع العصا عن عاتقه فهو بكل أرض نَزيل. ويبدو للنَّاظر في تلك العصا أنَّها مستقيمة كلسَان الميزان، تنبيهًا على أنَّ لسانَ التَّاريخ صادق، لا يَمِينُ ولا يُوَارِبُ ولا يُخَاتِلُ ولا يُعَمِّي ولا يُلغِز ولا يُرمِز ولا يُوَرِّي ولا يُكَنِّي ولا هو ممَّن يُساوَمُ وإن بملء جبَال الأرض ذهبًا إن وُزِن فمَا زَان.

إذا جلس ذاك الشَّيخ في مجلسه المَعمور، إلتفَّت حوله الحوادث مُستقضية إيَّاه تسأله سؤالَ المُسترَقِّ المأمور، تسأله الحُكْمَ في حوادث الدَّهر العِظام، ناظرة



إليـه في هيبة وإجـلال وإعظام، وتسـمع منه سـماع المُسَلِّم بحكم القاضي الحَكَم، فترضى بما أَنْفَذَ وإن عَليها بالمذمّة حَكَمَ. تسأله أيَّامُ الحرب فيم حروبها فيجيبُهَا، وتسأله أيَّامُ السِّلم عن عزِّها أين ضاع منه نصيبُها؟ وتسأله الدول عن علل تقويضها، وسبيل إدالتها وتعويضها، وتسأله العُلوم عن تداخلها والتباسـها، فيجيبها جـواب المفَنِّ العارف بدقيق أنفاسـها، وتسأله النِّحل عن أدواء تفرقها، فيفصِّـل لها طرائق تمزُّقها! وإن سألته الأهواء عن صِفَاتها، أنبأها وقَرَعَ الصَّلب من صَفَاتها.

هنـاك في ذاك المجلس يبـدو مـن الضَّـمائر مـا كان مَكنونًا، بشـهادة ذاك الشَّـيخ الَّـذي كان بالواقـع شـاهدًا عدلاً مَأمونًـا، ويظهـر من الحقائـق ما كان في طـيِّ الكِتمـان، بكشـف من ذاك الشَّـيخ الَّـذي هو مـن غَوائـل المَيْن عنهـا بأمان، ويَأمن الصِّـراطَ السَّـوي أن يشـتبه على شُـهود المجلس بِبُنَيَّات الطَّريق، فللحقائق عند أولي النُّهى نورٌ ساطع وبَريق.

قال الرَّاوي: لمَّا عَلمـتُ هذه النُّبذَ من حال التَّاريخ ومجالس ذاك الشَّيخ المَهيب، أَخـذني من الشَّـوق إليها ما يأخـذ المتيَّمَ إذا ريـاحُ الصَّـبَا تُبلغـه سـلام الحبيـب وبالوصـال تَهيـب فعزمت علـى الجلوس بمجلس الشَّـيخ للاسـتفادة، ورواية ذلك للإفادة، وطالعت في ذلك «بهجة المجالس وأنس المجالس»، و«الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّـامع»، مـع «الآداب الشَّـرعيَّة والمِنَح المرعيَّة»، و«الآداب النَّافعة بالألفاظ المختـارة الجامعـة»، وأمثال هـذه الكتب الَّتي من عمل بما فيها، تبسمت له مجالس الأدباء بملء فيها. ثمَّ إنِّي اسـتأذنت شيخ التَّاريخ في المجالسـة، فلم يأذن إلاَّ بعد أن استرضيته بما كتبته عنه في هذه المقامة.

وواعدني بميقات أمـرني بكتمانه، ومكان لم يُجز لي الكشـفَ عن موضـعه وصـفَةَ بُنيانه وليس لي من مجالس شـيخ التَّاريخ إلاَّ أن أَروي حديثه مُشافهة بإسناد عالي، علـى طريقـة المُحدِّثين في الأمَـالي والله الموفق للصَّواب، إليه المرجع والمآب.

□ المجلس الأوَّل:

حدَّثنا عيسـى بن عبـد الرَّحمن قال: حدَّثنـي شـيخُ التَّاريخ قـال: أي بنيَّ! من أراد أن يدفـع عـن نفسـه غوائـل حـدَّة الشَّـباب وصَـلَفَه، فليَرد معـين أخبار من مضى عنه وسَلفَه، ومن رام لنفسه النَّجاة مـن الاعتبار بنفسـه، فليعتـبِّر بأنباء من مضـى على سبيله الأهوَج من بني جنسه، وما انقطع حبل الوصـل بينـي وبين مُؤَمِّل المَجـد الزاهـر، إلاَّ كان صَـريع الهمـوم بكدَرها سَاهر.

يا بُنَيَّ! أَخـبِّر عنِّي منْ وراءك أنِّي قد بَلوت الأيَّام وسُـنَنَها المَاضـية، والشُّـهور وتَصَـاريفَها القاضـية، والأعـوامَ في تقلُّباتهـا، والسِّـنين في تَحرُّكهـا وثباتها. فوالله ما رأيت أعجب من ثلاث عايشـها الخلق جمعًا، فما ألقـوا لها بالاً ولا ذَرفُوا بها دمعًـا. ألا وإنَّها مُبكيات للقلوب الحيَّة عاصرة، مُضحكات للعقول القاصرة. فإن حفظتها عني وقع في نفسـك إن شـاء الله مـا لو عَلمَ بـه الملوك وأبناؤهـم لنابذوك عليه بالأَسنَّة الحداد.

أمَّـا الأولى: فقـد علـم كل مـن وَطئَ الـثَّرى أن لا سـبيل لأحـد في الخلود بهذه الـدَّار، فالمـوت هو المصـير المحتـوم وهو خاتمـة الأقدار، وشـواهد هـذا في بَداهَة المعقـول، ودلالة الصَّـريح الصَّـحيح من المنقـول. لمَّـا أيقن العقـلاء بهـذا أرادوا أن يَمُـدُّوا لهم الآجَال، بمـا ليس إلاَّ لأهل النَّقـل والعقل فيه مجـال. وهو مدٌّ للأجل

علـى طريـق الاسـتعارة والمجـاز، لأنَّ عُمْـرَ بني آدم في قصـره يشـبه الإيجَاز. فتسـبَّبوا إلى مـدِّ الأعمـار بالدُّخـول في أبواب التَّاريـخ وفصُـوله، بذكرهم ذكرًا يمدُّهُم إلى الخُلود ببعض أصـوله. إلاَّ أن مُبتغـي خلود الذكر يختلفـون في الطَّرائق الموصلة تلكَ المَسَالك، ما بين إشَادَة الدُّول والقصـور والمَمَالك، أو الحـذْقُ في العلوم المَجيدة وتصـنيفها، والصِّناعات العتيقة وتأليفهـا، أو الدنوِّ إلى أهل الفضـائل كي يُذْكَـرُوا في ركَابهـم، أو الانتسـاب إليهم وإن لم يكونوا في أسـبَابهم ولا أنسـابهم، وبعضـهم قـد يجنـح إلى أن يَهَبَ نَفْسَـه عُمرًا ثانيًا بالمَثالب الشَّـنيعة، ويسلك إلى ذلك سـبُلَ الرَّدى ويأتي كل ما لا يُرضَـى من الصَّنيعة، ويرضى لنفسه أن يُذكر ولو بالفعـال القبائح، فقديمًا قيل: «ما أيْسَـر الموت على النَّوائح»، ولكَ عبرة في مُسيلمة كـذَّاب بني حنيفـة، قد ارتضـى أن يُذكَرَ ولو بوصـف أَنْتَنَ من ريح الجيفة، واعْتَبِرْ بشـهادة من نطـق على لسـاني بأمدح ما قيل في شـيخ مـن شـيوخ الحجَـاز، أَمْلَتْهُ شَبَاةُ قَلَم إمام الرُّجَّاز:

قـل للذي عـــاب الحجـــا
زَ وجـــانَـبَ المَثَلَ الـحَصِيفـــا
هـــيهـــات لســت بـبـــالـغ
مُدَّ الحجَـاز ولا «نصيفـا»[1]

فـإن لَحظـت بعـين البصـيرة علمت أنَّ كـذَّاب اليمامَة دخـل التَّاريخ من باب أضيق من شسْعِ النَّعل، فيُذكَرُ بالسُّوء شرًّا ممَّا يُذكر به وَحشـيُّ الوَعْل، أمَّا نصـيف الحجـاز فهو كفَّارة عن تقصـير العلماء، فدخـل التَّاريخ من باب أوسَـع من امتداد

(1) البيتان للعلاَّمة محمَّد البشير الإبراهيمي يمدح بهما الأستاذ المحسن الجواد مُحمَّد نصيف، «الآثار» (125/4).

الزُّرقة ممَّا في البحر من ماء. والعاقل من النَّاس من رَضي لنفسه أن يُذكر في فصيل الفضائل وإن يكن في ذَنَب صفحاتي، وإنِّي والله لست أرحم يا بُنَيَّ أحدًا تعرَّض عامدًا إلى حَرِّ القَيظ من لَفحاتي.

□ المجلس الثاني:

قال الرَّاوي: حدَّثني التَّاريخُ في المجلس الثَّاني بعد أن قطع الحديثَ في المجلس الأوَّل عَامـدًا، وقد أفهمني لَحن حديثه أنَّه كان إلى التَّشويق ورسوخ الفهم والحفظ قاصـدًا وعامدًا. قـال ـ أعلى الله مَقامه ـ أمَّـا الثَّانية: فاعلم يا بُنَـيَّ أنِّي تأمَّلتُ فيما يَكتبه سَـدَنَةُ التَّاريـخ جَمعًا وسـردًا، وما يَزرعون بأرضه شوكًا وَوَردًا، وما يجمع أهل الأخبـار من أنباء مَنْ غَبر، وعرفت من كلِّ ذلك المبتدأ والخبر، وجمعت ذلك وتأمَّلته بإنصاف أصحاب المُتَصَفات، وميَّزتُ منه القَـدح من المَـدح ممَّا يَردُ من الصِّـفات، فعلمت مـن ذلك حقائـقَ كاليقين قاطعة، وبالبرهان بارقة وساطعة، ألخِّصها لك في كلمات تُحفَظ، وعلى طَرَف كلِّ لسـان بعد ذلك ـ إن شاء الله ـ تُلفظ:

1. يـا بُنَـيَّ! لأنْ أُعَدَمَ سَـدَنَةً يُثَاقِفُونَ جَميـل طُروسـي، ويحفظـون العذب من معين دُروسـي، أحبُّ إليَّ ممَّـن يُعزَى إليَّ وهمُّه رواية النُّقـول عن الأحبار، من غير وعيٍ ونقدٍ لتلك الأخبار.

2. يـا بُنَيَّ! من ثَاقَـنَ طُرُوسَ الرِّواية، عَريًّـا عـن آلاتِ الدِّرايـة، رأيتـه كالجُعَلِ يتدَهْـدَهُ إلى حَمْأَةِ المُغالطات الفاضـحة، المُضحكة من كَواذبها النَّاضِحة.

3. يا بُنَيَّ! إنَّ سياسـة نصـوص كتابي سياسـة، يجـب علـى خائضـها أن يكون لديـه مـا يكون عنـد السَّاسـة، مـن عِلْمٍ بالشَّـريعة لئلاَّ ينكث العهـود، ولا يرتمي في الشَّـهوات بـين الأحضـان والنُّهـود، وعِلْم باللُّغـة والأدب، لئلاَّ يفهم من الرِّيِّ الجَدَب، وبصيرةٍ بفلسـفة النَّفس والعلم والاجتمـاع، كـي لا تختلـط عليه القِصَّـةُ مِـنَ الفِضَّـة عنـد الإلمَـاع، وبصـرٍ ثاقبٍ بمناهـج النَّقـد عنـد أهل الحديـث، من غـير تفريق بـين المتقدِّمين وأهل العصـر الحديث، وبعد هذا كلِّه حساسـية مفرطة مـن تقديس الرِّجال عند السِّـجَال، وتتبُّع الأوهام والظُّنون كالمتيَّم بربَّات الحِجَال.

4. يـا بُنَـيَّ! مَنْ لم تكن لـه في التَّاريخ مَلَكَةُ التَّعليـل، كان كالتَّائه في البَيداء من غير دليـل، وقد حفر لنفسـه بين سـطور مَزبوراتـي قـبرًا، يُحْشـر فيـه مـع الفتن والمحن قَسْرًا وجبرًا.

5. يا بُنَيَّ! مـا رأيت أعجب من عزيزِ قوم صـار يُبْصَر إليه بعين الرَّحمة ذليلاً، وذليـلِ قوم صـار من بعد المهانـة جليلاً، فعلمـت أنَّ النَّـاس يعيشـون في دُولاب، سـريع الانقلاب، وقد حفر رِمسَـه لنفسه من إذا عزَّ لَؤُمَ بالكِبْر، وقد شـرى لنفسه العزَّ من إذا ذُلَّ صبر كالنَّار تقربها للتِّبر.

6. يا بُنَيَّ! إنِّي لستُ أرضى أحدًا يُعزى إليَّ ثـمَّ تـراه مـن الهمـوم خَليـا، ولا من نفسُه في التَّنقيب والبحث أقصرَ مِن نَفَسِ الغَائص في اليمِّ وكان من سِجل الهواء عَرِيًّا.

□ المجلس الثَّالث:

حَدَّثنا عيسـى بن عبـد الرَّحمن قال: حدَّثنا شيخُ التَّاريخ قال: يابني! أمَّا الثَّالثة فـإنِّي محدِّثك عن هـذه الأمَّـة، المَفْدُوحَة بالهـمِّ في كلّ حـين بالخَطْب مُلمَّـة، ثَكلى الصَّـحوات المُجهضَـة، عَقْرَى الصَّـهوات المُنهضَة، حَلْقَى الرُّؤوس المُنقضَة، خَفيضَةُ الأجنحـة المَهيضَـة، صَـرعى المُضْـمَرات المَريضة، جاحظة العين من قروح الأكباد، المفؤودةُ من رمَد بصـائر العباد، الضَّريكَة للعزِّ التَّالد، المَشُـوقَة لحُنُوِّ الوليد والوالد. المسـتباحةُ من بعد حُماة الإبـاء، الطريدةُ صِنوَ جريح الظِّبَاء، المُقادَة بيد الجهل إلى حَتفها، كالشَّاة تسعى إليه بظِلْفِهَا، المُقَمَّصَةُ ثيابَ الظَّالم الجائر، بيَد مَن هو بالجَور في العالَم سائر، المُسْتَسيغَةُ غُصَصَ الجَهَالة، المُنضيةُ مَطايا أهل السَّفالَة، المتحلِّيةُ بحُليِّ الوَهَم المُستعَار، المُسْتَطيبَة طَعم الانتكاسَة بالعَار. فاسمع بُنَيَّ ما أَمْلَتْهُ العين الدَّامعة، من ضَنَائن المَكنُونَات الجامعة:

يـا بُنَـيَّ! وربِّ البنيَّة مَقصـد الحَجيج الطَّائفين، لن يفهم حاضرَ هذه الأمَّة من لم يفهم ماضـيها منذ أن كُسِر قُفْلُ باب الفتن وأيَّام الجَمَل وصـفِّين! إلى هـذه الأيَّام الَّتي تَلعب فيها الفتن بالأمَّة لَعِبَ البَحر بالسُّفن.

يـا بُنَـيَّ! إنَّ أعجـز الخلـق عـن فهم الحاضـر الَّذي يَرون أَحْدَاثـه، هم أعجَزُ الخلـق عـن فهـم الماضـي الَّـذي يقلِّبون أَجْدَاثَه، وإن هم استمرَّت بهم بليَّة العجز عن الاستبصار، جُرَّت عليهم أذْيَال المذلَّة وما لهم من الظَّالمين من أنصار!

يـا بُنَـيَّ! إنِّي قلَّبـت النَّظـر في أحوال الأمَم، ما مضـى منها وما تُبصـرُهُ أعينُ أهل الفطَـن والهِمَم، فرأيـتُ أَنَّ الأممَ لا يتفرَّق شَـملَها المَجمُوع، ولا يُتَصَـامَم عن قولها المسـموع، إلاَّ إذا عَمَـدَ أبناؤها إلى



لَعْق الجراح الَّتي كَلَمَهَا البعض من بعض، وصــار لا يُتَّقى الصَّــارم بينهم في الوعظ، ثمَّ البليَّة بَعْدُ أن لا يَفطن إلى أنَّه إنَّما جَدع بيده أنفَه، وقطع بها كفَّه، ثمَّ لا يَجد بَعْدُ نفســه أنَّه في أهل الشَّقاء من الهالكين.

يــا بُنَيَّ! كانت مجالس الأمالي عند المحدِّثين يُســتظرف فيها الأشــعار المســتملحة، وبدائــعُ القصــيد الموشَّــحة، وإنِّي أجيــزك أن تــروي على لســان التَّاريخ هــذه الأبيات تلخيصًا لما بيَّنته لك من المعاني السَّابقة، والله أرجو لك في السَّابقين المكانَة السَّامقَة:

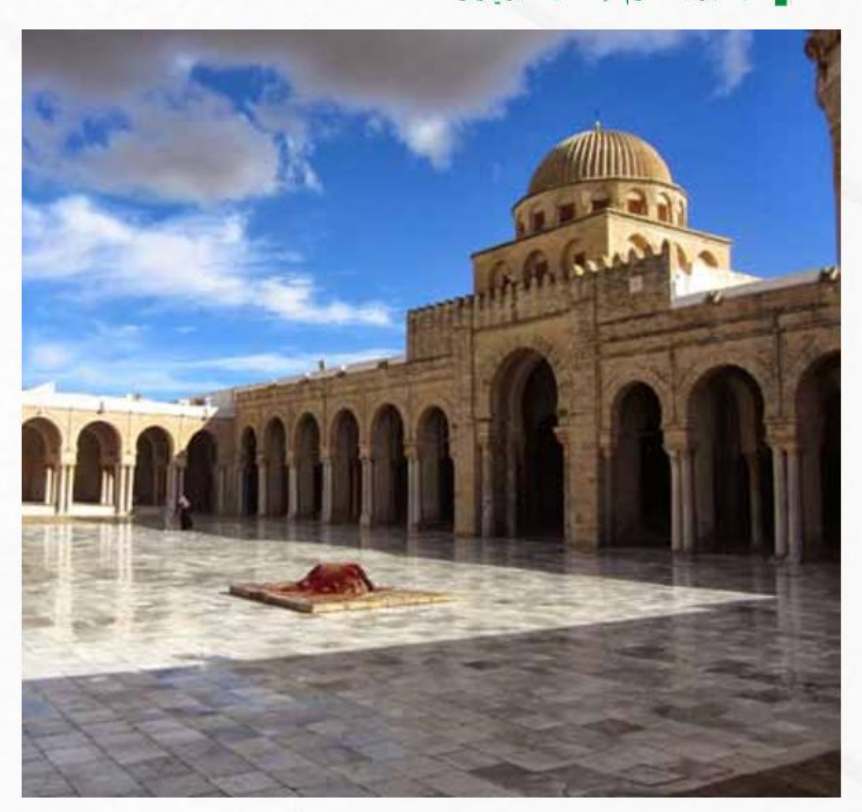
ودِّع بِــعَقلــك لا بـقـلبك واقِعـك
واجلس بجسمك في مكانك يَسمَعُكْ
واصنـع بعقلـك في الخيـال غـزالـة
حَـكَمَ الفـراق بِبَينِهـا وتُرى معـك
مــا زال قلبك راكضـا لخيــالها
يَدنُــو فتَنِـفـر مـثلَ نـجـم في فـلـك
والعقـل سفَّهَ مــا يـرَاه كمـا يَرى
بعضُ الشيوخ لمن بعشقه قد هَلَـك
ودِّع بعـقلـك مــا تـراه مـن الهـوى
أَوْدِعْـهُ قـلبَك كي ينير لـدى الحَلَـك
وانظـر بعينـك للحيـاة تـرى بـهـا
قَلَمًا بهـا رسَم الـدروب لمن سلـك
لَونـان فيـه مـن الـدمـاء شَبَـاتُـهُ
فـالعز خُط من الدمـاء بـمـا مَلَك
والصفحة البيضـاءُ يكتب نـورَهـا
أمــلٌ يقــودُ كَلَـمَّـةِ نَفَـثَ المَـلَـك
ودِّع بعقلك أهـل جِيلـك إن تـــرى
حـقـل العـقـول من البَــوار تبدَّ لـك
فـاسمـوا إلى قـمـم الجبــال ولا تَني
أن كـان غَيـرك في السَّفـالة والضنك
وجليس تلك الشمِّ في علــيـــائها
سُحْـبٌ بهـا وَدَقُ الحيَـا ينصبُّ لـك
وانظر بعين الشَّــامخات إلى الـدنـا
والـفـأر يَـخـرِمُ مـثـل حَكَّة من يَحَك
وانظر بِمُقلــة مــن يَرى مُتسـاميـا
لُجَـجَ الخصوم جَعَـاجِعـا لن تطحنك
واجعل لهم من عين قلبك رحمــــة
إن تَطْـغَ تـزرع شــوكـة فيهـا الهَلَك
يـــا من يرى أن في الحيـاة تقلبـــا
تمضي عليك بمـا عـليـك جَـرًا و لَكْ

والحمد لله ربِّ العالمين.

من أصولِ التّربية الإسلاميّة عند الإمامِ ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ

يونس بوحمادو

ماجستير في العلوم الإسلامية - تيزي وزو



لقد أشار الإمام عبد الحميد ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ في خطَّته الإصلاحيَّة إلى كثير من القضايا والمسائل التَّربويَّة النَّفيسة العزيزة، فأحسنَ التَّناولَ وأجادَ، وَوَاقَعَ المطلوبَ وأفادَ، بل تميَّز في بعضها وتفرَّدَ، وأَصَّلَ فيها أصولاً وقعَّدَ، وما ذلك إلاَّ لاستحكام الخبرة، وحسن استنباط الأسوة والعِبرَة، وسأشير إلى بعضها في هذه المقالة، مجانبًا البَسطَ والإطالة.

إنَّ أيَّ عمليَّة تربويَّة لن تكون ذات جدوى إلاَّ بصلاح طَرفيها؛ المعلِّم والمتعلِّم، فأيُّ خلل فيهما أو في أحدهما قد يجرُّ إلى نتائج عكسيَّة ممقوتة، لهذا دعا الإمام المعلِّمين والمدرِّسين إلى القيام بهذه المهمَّة أحسن قيام، فقدَّم الكثير من التَّوجيهات العلميَّة والعمليَّة، نذكر منها:

الاعتزاز بمهمَّة التَّربية والتَّعليم

فالإمام ابن باديس رغم كلِّ الأعمال والمهام التي خاض غمارها، وتنوُّع الوسائل المشروعة التي استعان بها، إلاَّ أنَّه كان دائمًا يَعُدُّ نفسه معلِّمًا مربِّيًا، وقد شغل هذا الجانب مجالاً واسعًا من جهد الإمام وجهاده، بل استغرقه كلَّه، وقد قال هو عن نفسه - يوم انتخابه -: «إنَّني قصرت وقتي على التَّعليم فلا شغل لي سواه»[1].

ومن لطيف الإشارات؛ أنَّ الإمام لمَّا انتخب رئيسًا لجمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين، ولمَّا قام فيهم خطيبًا، لم يجد ما يناديهم به - رغم اختلاف وظائفهم واختصاصاتهم - إلاَّ أن قال: «والآن أيُّها الأساتذة؛ نحمد الله الذي يسَّر لنا هذا الجمع المبارك، ونسأله تعالى كما أذاقنا حلاوة هذا النَّعيم أن يديمه لنا، ويتمَّ لنا به، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[2]، فكان الإمام ينظر إلى إخوانه وصحبه كما كان ينظر إلى نفسه، فلم يكن يراهم سوى أساتذة معلِّمين، ومربِّين مرشدين.

وبعد الإشارة والتَّلميح؛ لجأ إلى الإبانة والتَّصريح، فقالها ظاهرة صريحة: «... فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى تكريم التَّعليم إظهارًا لمقصد من أعظم مقاصد الجمعيَّة، وحثًّا لجميع الأعضاء على العناية به، كلٌّ بجهده»[3].

ما سلك الإمام هذا المسلك إلاَّ لإدراكه التَّام بمدى صلاحيَّة هذا الجانب لتحقيق مقاصده وأهدافه المرجوَّة، خاصَّة على

(1) «آثار ابن باديس» (3/ 520).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.

المدى البعيد منها، ونجده في هذا المجال استعمل المصطلحات الاستغراقيَّة، مثل: (القصر/ لا شغل لي سواه...)، ما يدلُّ على أنَّ وظيفته الأساسيَّة والجوهريَّة هي: التَّربية والتَّعليم، ومذهب الإمام ليس بدعًا من الأعمال، فقد قال النَّبيُّ ﷺ عن نفسه: «إنَّ الله لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا ولكن بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا»[4]، وقال الله تعالى في كتابه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، فكان النبيُّ ﷺ هو القدوة والإسوة.

❋ ❋ ❋

الاتِّصال بين المعلِّم وتلميذه

ومن القضايا التَّربويَّة؛ دعوة الإمام المعلِّمين لتقوية الاتِّصال بينهم وبين طلاَّبهم، وأن ينفخوا فيهم من روحهم العلميَّة والأخلاقيَّة، وقد قال الإمام ـ متحسِّرًا ـ: «أغلب المعلِّمين في المعاهد الإسلاميَّة الكبرى كالأزهر لا يتَّصلون بتلامذتهم إلاَّ اتِّصالاً عامًّا لا يتجاوز أوقات التَّعليم، فيتخرَّج التَّلامذة في العلوم والفنون، ولكن بدون تلك الرُّوح الخاصَّة التي ينفخها المعلِّم في تلميذه ـ إذا كانت للمعلِّم روح ـ، ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلميَّة في سائر حياته... فعلى المعلِّم الذي يريد أن يكوِّن من تلامذته رجالاً أن يشعرهم ـ واحدًا واحدًا ـ أنَّه متَّصل بكلِّ واحد منهم اتِّصالاً خاصًّا زيادة على الاتِّصال العامِّ، وأن يصدِّق لهم هذا بعنايته خارج الدَّرس بكلِّ واحد منهم...»[5].

نجد الإمام في هذا النَّص يؤصِّل لطبيعة العلاقة التي يجب أن تكون بين المربِّي والتِّلميذ، هذه العلاقة القائمة على أسس ثلاثة هي:

1/ الاتِّصال العامّ: يكون في أوقات التَّعليم النِّظامي المقرَّر والمحدَّد، وهي أوقات يسيرة قصيرة غالبًا.

2/ الاتِّصال الخاصّ: يكون خارج الدَّرس، بمزيد المتابعة والعناية والتَّكفُّل، وهي أكثر الوقت وأغلبه.

3/ روح التَّربية والتَّعليم: وهي تلك الرُّوح التي ينفخها المربِّي في تلميذه، وقد فصَّل الإمام ما أجمله في هذا الجانب، فأبان عن هذه الرُّوح وشرحها وشرَّحها، وهي التي تحصل بها «الكفالة الأبويَّة الرُّوحيَّة»، كون هذه الأخيرة يمكنها إيجاد العاطفة الصَّادقة في الجوِّ التَّعليمي، حتَّى لا تكون العمليَّة التَّربويَّة جافَّة جوفاء، وتتحقَّق هذه الكفالة المميِّزة بعناية المعلِّم بتلميذه «عناية خاصَّة في سائر نواحي حياته حتَّى يشعر كلُّ واحد منهم أنَّه في طور تربية وتعليم في كفالة أب روحي يعطف عليه ويعني به مثل أبيه أو أكثر»[6].

فمن خلال هذه الجوانب يمكن أن تتحقَّق الغاية من الدِّراسة ومجالسة الشُّيوخ والمربِّين، وذلك بأن يصل التِّلميذ إلى «فهم قواعد العلم وتطبيقها حتَّى تحصل ملكة استعمالها، هذا هو المقصود من الدَّرس على الشُّيوخ، فأمَّا توسيع دائرة الفهم والاطلاع فإنَّما يتوصَّل إليها الطَّالب بنفسه؛ بمطالعاته للكتب، ومزاولته للتَّقرير والتَّحرير...»[7].

❋ ❋ ❋

الرِّعاية والتهذيب بوسطيَّة واعتدال

لم يكن الإمام يريد مقابلة التَّعصُّب بتعصُّب آخر، بل أبان عن غايته من التَّربية بقوله: «إنَّنا نريد أن نُخرج من هذه المعاهد ناشئة مهذَّبة تعمل جهدها لكي تكون بعيدة عن هذا التَّعصُّب الممقوت»[8]، والتَّهذيب عند الإمام يتناوله بمفهومه الشَّامل، ذاك الذي يحيط بجميع جوانب الإنسان بالرِّعاية والتَّعاهد، والرِّعاية الشَّاملة تكون من جانبين اثنين هما:

أ/ الرِّعاية الخارجيَّة: هي التي يتلقَّاها التِّلميذ من المعلِّم والمربِّي بالحفظ والتَّفقُّد، قال الإمام: «الرِّعاية حفظ الشَّيء، وتفقُّد أحواله، وإعطاؤه ما يحتاج إليه، وصرفه عمَّا يؤذيه، وما لا فائدة له فيه، ووقايته ممَّا يعدو عليه، وكلّ من جعل الله تحت يده شيئًا من مخلوقاته فقد استرعاه ذلك الشَّيء، أي: جعله في رعايته، وطالبه وكلَّفه بأن يرعاه، فصار مسؤولاً عنه عند الله»[9].

ب/ الرِّعاية الدَّاخليَّة: وذلك بتوجيه المربِّي لمن يربِّيه إلى مسؤوليَّاته الشَّخصيَّة، وواجباته اتِّجاه نفسه، ليقوم عليها بالرِّعاية والحفظ، وذلك أنَّه «ما من بالغ عاقل ذكرًا أو أنثى إلاَّ وقد جعل الله له شيئًا في رعايته، ولو لم يكن من ذلك إلاَّ نفسه وعقله وبدنه، وأعظِمْ بهما من شيء تجب رعايته»[10].

فبالتقاء الرِّعايتين تكتمل حلقات التَّربية والتَّهذيب، وتستحكم أواصر الاتِّصال بين الملقي والمتلقِّي، ويتحمَّل كلُّ

(4) رواه مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه (1478).
(5) «آثار ابن باديس» (4/ 202).
(6) المصدر نفسه.
(7) المصدر نفسه (4/ 203).
(8) المصدر نفسه (3/ 304).
(9) «مجالس التَّذكير من حديث البشير النَّذير» (ص122).
(10) المصدر نفسه.

واحد مسؤوليَّاته وارتباطاته اتِّجاه رعاية مصالح النَّاشئة.

❋ ❋ ❋

ماهيَّة التعليم المطلوب المرغوب

لقد بيَّن الإمام نوعيَّة التَّعليم الذي يرمي للوصول إليه وتحقيقه في الأمَّة، الذي يمكنه أن يحقِّق الأهداف والمقاصد، فقال: «ولا أدلَّ على وجود روح الحياة في الأمَّة وشعورها بنفسها، ورغبتها في التَّقدُّم من أخذها بأسباب التَّعليم: التَّعليم الذي ينشر فيها الحياة، ويبعثها على العمل، ويسمو بشخصيَّتها في سلَّم الرُّقي الإنساني، ويُظهر كيانها بين الأمم»[11]، فهذا هو التَّعليم الذي يجب على الأمَّة أن تطلبه، وتبذل في سبيله ما أوتيته من قوَّة علميَّة وعمليَّة.

❋ ❋ ❋

الاتِّصال بين المعلِّم وتلميذه

إنَّ التَّربية تؤتي أُكُلها مع جميع فئات المجتمع، لكن الإمام تفطَّن إلى أنَّ أكثر الفئات قابلية للاستجابة لهذه التَّربية هي فئة الشَّباب، وذلك لعدَّة أسباب موضوعيَّة ونفسيَّة، ولهذا «من الواجب تلبية نداء الشَّباب الذي هو نتيجة الماضي، وزهرة الحاضر، وآمال المستقبل، وعدَّة الحياة»[12]، ولا يخفى ما يتمتَّع به الشَّباب من الحماس والقوَّة والانفعال، ممَّا يمكن أن يُستغلَّ يومًا في تحرير البلاد من آلامها وتحقيق آمالها، هذا الشَّباب الذي كان الإمام يعرف دوره جيِّدًا في النُّهوض بأثقل المسؤوليَّات وأعظمها، وقد صدَّقته التَّجربة، ووافقه التَّاريخ والواقع.

❋ ❋ ❋

الحرص على البناء التَّربوي للأفراد

إنَّ المجتمع بمئاته وآلافه وملايينه في الحقيقة ليس سوى مجموعة من الأفراد، فالمجتمعات والجماعات لا تبنى إلاَّ ببناء أفرادها، ذلك أنَّ «أعظم البناء وأصعبه، وأبعده وأتعبه، بناء الأمم المتهدِّمة، والشُّعوب الدَّائرة، وإنَّما تبنى الأمم من أفرادها، وتشيَّد بأبنائها، وإنَّما الأفراد بنفوسها وعقولها، وقلوبها وسواعدها»[13]، والحقيقة أنَّ هذه الزَّوايا الأخيرة كلَّها معنيَّة بالعمليَّة التَّربويَّة الشَّاملة، وقد رسم الإمام في هذا النَّصِّ القصير مخطَّطًا متكاملاً للبناء التَّربوي المحكم والفعَّال، فقد قيَّد إصلاح الأمَّة بإصلاح أفرادها، وربط صلاح الفرد بصلاح جوانب تكوينه الأربع (النَّفس/ العقل/ القلب/ السَّواعد)، وهذه الأخيرة هي الإنسان كلُّه بمادَّته وروحه.

❋ ❋ ❋

بعث الفاعليَّة في العمليَّة التَّربويَّة

لقد حذَّر الإمام المربِّين من إفراغ العمليَّة التَّربويَّة من فحواها ومحتواها، كما دعا في نفس الوقت لإعطائها كلَّ الزَّخم المعرفيِّ والدَّفع النَّفسي والعلمي؛ لأنَّه ما من تربية وتعليم إسلاميَّين إلاَّ وفي النَّواحي تعليم استعماري منافس، يسعى لمسخ الجزائريِّ مستغلاً في ذلك كلَّ الوسائل النَّفسيَّة والتَّربويَّة في سبيل تحقيق هذا الهدف الخسيس.

ويتجلَّى هذا السَّعي من الإمام لتفعيل التَّربية الإسلاميَّة في انتقاده للكتاتيب القرآنيَّة المتخلِّفة، فقد وُجِدَت «كثير من الكتاتيب القرآنيَّة يمكث فيها الولد عامين ولا يحسن كتابة اسمه، فيضعه والده في مكتب فرنسوي فيحسن مبادئ الكتابة في شهرين، هذا واقع مشاهد وهو فتنة للنَّاس في تركهم تعليم أولادهم العربيَّة وشيئًا من القرآن العظيم وإثمها على الجامدين المعاندين من المكتبِّين»[14].

وقد سعى الإمام في عمله التَّربوي عكس الواقع السَّابق الذي انتقده، بل رسم لنفسه خطَّة محكمة ألزم بها نفسه، وسعى في تطبيقها وتوصية زملائه بأن يلتزموها حتَّى تكون منهجًا جماعيًّا، عوض أن تبقى جهوده سعيًا فرديًّا معزولاً.

❋ ❋ ❋

مراعاة علم النَّفس البشريَّة

لقد أشار الإمام إلى وجوب اعتناء المربِّين بعلم النَّفس البشريَّة، وذلك من حيث الاطِّلاع العلمي النَّظري على هذا العلم، ثمَّ تعامُل المعلِّم مع التَّلاميذ من خلال ما توصَّل إليه هذا المجال من الحقائق النَّفسيَّة الضَّروريَّة (الجانب التَّطبيقي)، ومن ذلك قوله: «أصل عظيم في التَّربية المبنيَّة على علم النَّفس البشريَّة، فإنَّ النُّفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوَّة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما

(11) «آثار ابن باديس» (4/ 359).
(12) المصدر نفسه (4/ 331).
(13) «الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره» (5/ 369).
(14) «الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره» (6/ 355).

تشعر بحقارتها وعجزها تقعد عن العمل وترجع إلى أحطِّ دركات السُّقوط... وهذا الأصل العظيم... يحتاج إليه كلُّ مربٍّ سواء أكان مربِّيا للصِّغار أم الكبار، وللأفراد أم الأمم، إذ التَّحقير والتَّقنيط وقطع حبل الرَّجاء قتل للنُّفوس؛ نفوس الأفراد والجماعات وذلك ضدّ التَّربية والاحترام، والتَّنشيط وبعث الرَّجاء إحياء لها، وذلك هو غرض كلِّ مربٍّ ناصح في بيته»[15].

من خلال هذا النَّصِّ نجد بأنَّ الإمام يعتبر المربِّي النَّاجح هو الذي يحيي الأموات معرفيًّا، والفاشل من يميت في المتعلِّم استعداداته وقدراته المعرفيَّة والعلميَّة، فشتَّانَ وبُعْدَانَ ما بين الاثنين، فالأوَّل خير وبعث وصلاح، والثَّاني موت وبوار وطلاح.

❋ ❋ ❋

الشَّيء إذا تكرَّر تقرَّر

من القضايا التَّربويَّة التي أشار إليها الإمام، واعتبرها أصلاً من أصول هذا العلم، تنبيهه للمربِّين على وجوب الحذر من الأخلاق المتكرِّرة من المتعلِّمين، فدعا المربِّين إلى عدم استصغار المنكرات بعدم إنكارها، أو استصغار المكارم وعدم تثمينها واستحسانها، لما لهذه الجوانب من آثار في الفرد والمجتمع جميعًا، ذلك «أنَّ تكرُّر العمل بمقتضى خلق من الأخلاق يقوِّيه ويثبِّته، وأنَّ العمل على مقتضى ضدِّه يضعفه ويزيله، وهذا أصل عظيم أيضًا في التَّربية يعلِّمنا أنَّ التَّساهل في الأعمال السَّيِّئة ولو كانت في نظرنا طفيفة يفضي بنا إلى استعصاء داء الرَّذيلة، وأنَّ القيام بالأعمال الحسنة ولو كانت طفيفة يبلغ بنا إلى رسوخ الفضيلة»[16].

(15) «مجالس التَّذكير من حديث البشير النَّذير» (ص82).

❋ ❋ ❋

تعريف الخلف بمآثر السَّلف

لقد دعا الإمام المربِّين لتعريف الأجيال بسابقيهم، وربط الخلف بصالحيهم من السَّلف، خاصَّة من عُرف منهم في سيرته بالالتزام والشَّجاعة والإقدام، من الفاتحين المؤمنين، من أولئك الذين كانوا رموزًا للإسلام السَّلفي الصَّحيح، فقد كان الإمام يأمل في الخَلَف من يأخذ بلواء السَّلف لمواصلة مسيرة الفتح والبناء الحضاري على نهج النُّبوة الصَّافي، وقد قال الإمام في هذا المجال: «أليس من العار الفاضح علينا أنَّنا نعرف من كرامات الذين نشروا (الطَّريق) في الجزائر دفاتر وسجلاَّت، وأكثرنا لا يعرف شيئًا من مآثر الفاتحين الذين نشروا فيه الإسلام؟!! لكن لا عجب فإنَّ أولئك تُكسب باسمهم الثَّروات وطلاَّبهم كثير، وهؤلاء تنشر بذكراهم الحياة، والعارفون بقيمتها في الأمم المنحطَّة قليل»[17]، ونلاحظ هنا تركيز الإمام على القادة الفاتحين، إشارةً منه إلى المجد الإسلامي العتيد، واستنهاضًا للهمم، وإيقادًا للعزائم الخاملة.

❋ ❋ ❋

الحث على بعث آلات البحث والتَّفكير

هذه الآلات التي يسعى المخذِّلون والمعوِّقون بوسائل التَّخدير والتَّجهيل إلى تعطيلها، وإيقافها عن تأدية مهامها الضَّروريَّة للبقاء الكريم، ولهذا صاح الإمام في طلبة العلم قائلاً: «فالتَّفكيرَ التَّفكيرَ يا طلبة العلم، فإنَّ القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم، وإنَّما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتَّقليد، وخير منهما الجاهل البسيط»[18]، وهذا حتَّى لا يقف الطَّالب عند القراءة المجرَّدة من التَّفكير والنَّظر، الذي بمعوله تنكسر صخرة الجمود والتَّقليد الممقوتين.

(16) «مجالس التَّذكير من حديث البشير النَّذير» (ص117).

(17) «الإمام عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره» (5/ 61).



الدَّعوة لتعلُّم اللُّغات الأجنبيَّة

رغم بذل الإمام جهده لإحياء اللُّغة العربيَّة والدِّفاع عنها، إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنعه من الدَّعوة إلى تعلُّم اللُّغات الأخرى، كون هذه الأخيرة كانت لسان العلوم والمعارف الكونيَّة، قال الإمام ابن باديس: «العلوم في الجزائر كما أظنُّها في غيرها، منها علوم تؤخذ باللِّسان العربي وهي علوم الدِّين واللِّسان، ومنها علوم تؤخذ باللِّسان الأجنبي وهي علوم الأكوان والعمران...»[19]، وقد اعتبر الإمام تعلُّم اللُّغة الأجنبيَّة قضيَّة لابدَّ من الانتباه إليها، كما أبعد اللُّغة عن الصِّراع والصِّدام الذي قد يكون بين النَّاطقين بها، بل يجب النَّظر إلى المصلحة التي يمكن جرُّها من خلال التَّمكُّن في لغة هذا الآخر حتَّى وإن كان عدوًّا، وقد قال الإمام ابن باديس مقرِّرا هذا: «كلُّ قوم تربط بينهم المصالح لابدَّ لهم من التَّعاون،

(18) «آثار ابن باديس» (4/ 205).

(19) «آثار ابن باديس» (4/ 332).

ولا يتمّ التّعاون إلاّ بالتّفاهم، والتّفاهم بالمشافهة والكتابة، فعلى القوم المترابطين بالمصلحة أن يفهموا بعضهم لغة بعض وخطّه، وبقدر ما تكثر الأقوام المترابطة بالمصلحة تكثر اللّغات والخطوط ويلزم تعلّمها... فنحن اليوم وقد ربطت بيننا وبين أمم أخرى مصالح، علينا أن نعرف لغتهم وخطّهم، كما عليهم هم أن يعرفوا لغتنا وخطّنا»[20]، فاللّغة وسيلة للاطّلاع ومعرفة الآخر، وليست طريقًا للمسخ والذّوبان في ساحته.

❋❋❋

الجمع بين القول والعمل

من أهمّ ما يجب أن يُربّى عليه النّاس عند الإمام ابن باديس؛ هو الحرص على السّير بثنائيّة القول والعمل، والمقصود هنا هو القول العلمي الثّابت، والعمل البنّاء الصّحيح، ذلك أنّ تأخّر واحد منهما سيُفقد العمل والجهد استقامته وتصويبه، هذا إذا لم يؤدّ إلى نتائج عكسيّة مرفوضة.

وقد كان هذا التّوجيه حاضرًا مع الإمام حتّى في تعامله مع القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [سُورَةُ الصَّفِّ]، ومن ذلك إشارته إلى «فضل من جمع بين تعلّم القرآن وتعليمه لغيره وأنّه خير من غيره، وإنّما تثبت له هذه المزيّة لأنّ المراد من متعلّمه من حفظه وفهمه وعمل به، والمراد من معلّمه من يلقّنه غيره، ويفسّره له ويرشده إلى العمل به، وإذا كان هذا النّوع الممدوح في الحديث[21] المفضّل على غيره بشهادة الصّادق المصدوق مفقودًا من بيننا أو كالمفقود، فالواجب علينا السّعي في تكوينه، ولهذا دَعونا الكتّاب إلى العناية بهذا الموضوع»[22].

وقد ذهب الإمام إلى أبعد من هذا عندما يقرّر عدم الجدوى من ترك العمل بما يُعلم، وذلك لكون الإمام ممّن يسعون للتّغيير وليس للتّنظير فقط، ومن أمثلته قوله: «المجدي على المرء هو عمله، أمّا التّلاوة وحدها فإنّها لا تجدي، فالمنافق يتلو القرآن ولكنّه في الدّرك الأسفل من النّار... والعمل بالقرآن يقتضي فهم معانيه، فيا أيّها القرّاء المؤمنون تطلّبوا معاني ما تقرأون، واعملوا بما تفهمون، كي تكونوا أترجّة، ويا أيّها المؤمنون الأمّيّون اسألوا أهل الذّكر والعلم بكتاب ربّكم وتحرّوا العمل بما دعاكم إليه كي تكونوا تمرة»[23].

ففي هذا النّص يدعو الإمام إلى القراءة ثمّ الفهم، وبعد الفهم المسارعة إلى الامتثال والعمل، ونقل النّص من النّظريّة إلى التّطبيق والعمل، ولم يغفل الإمام عن العاجز عن القراءة بسبب الأميّة، حيث وصف له ما يناسبه وهو سؤال أهل العلم والذّكر الرّاسخة أقدامهم.

❋❋❋

تعميم التّربية والتّعليم على الجنسين

نادى الإمام ابن باديس في عديد المحافل والمناسبات بوجوب تعميم التّعليم على جميع الفئات، والتّعميم هنا وارد بمفهومه العامّ الشّامل للكبار والصّغار، الرّجال والنّساء، ذلك أنّ التّعليم ليس من الفروض الكفائيّة، بل هو من المتعيّنات العينيّة على كلّ واحد يرفع به الجهل عن نفسه، كما دعا الإمامُ المعلّمين لرفع سقف الأهداف والمقاصد، بتكوين رجال ونساء يصونون الأجيال، ولن يتحقّق هذا إلاّ بسعي المعلّمين «لأبنائنا وبناتنا أن يعلّموهم ويعلّموهنّ هذه الحقائق الشّرعية ليتزوّدوا وليتزوّدن بها، وبما يطبعهم ويطبعهنّ عليه من التّربية الإسلاميّة العالية لميادين الحياة فيكونوا ويكنّ - إن شاء الله تعالى - مثال الطّهر والعفاف والصّون للأجيال.

حقّق الله الآمال، ويسّر الصّالح من الأعمال، إنّه عظيم الفضل كريم النّوال»[24]، آمين، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمّد وعلى آله وأزواجه وصحبه أجمعين، والله تعالى أعلم.

❋❋❋

(20) «مجالس التّذكير من حديث البشير النّذير» (ص 72).

(21) يقصد حديث عثمان رضي الله عنه عن النّبي ﷺ أنّه قال: «خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه»، رواه البخاري (5027).

(22) «مجالس التّذكير من حديث البشير النّذير» (ص204).

(23) المصدر نفسه (ص206).

(24) المصدر نفسه (ص174).

مفهوم العفة في الإسلام

عمر الحاج مسعود

إنَّ العفَّة خُلُق عظيم ومسلكٌ قويم، يجمع خلالَ الخير ويضُمُّ خصالَ المعروف، حضَّت عليه الشَّريعة الغرَّاء، وتزيَّن به الصُّلحاء وتحدَّث به الأدباء، وجملة القول: إنَّها الكفُّ عَن المحارم وخوارم المروءة والبعدُ عن المآثم والشَّرِّ، والأنفةُ من الجهل، والتَّنزُّهُ عن الأطْماع، ومباشرةُ الأمور على وَفق الشَّرع والمروءة[1].

ولعظَم شأنها وشدَّة الحاجة إليها كان النَّبيُّ ﷺ يسأَلها ربَّه، فمن جوامع دعائه وأنفعه: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ وَالغِنَى» [رواه مسلم (2721)]، وله في رواية «والعفَّة».

يتضمَّن هذا الدُّعاء سؤالَ خير الدِّين وخير الدُّنيا؛ فإنَّ الهدى هو العلم النَّافع، والتُّقى هو العملُ الصَّالح وتركُ ما نهى الله ورسوله عنه، وبذلك يصلح الدِّين، والعفافُ يتضمَّن العفافَ عن الخَلق، وعدمَ تعليق القلب بهم، والعفَّةَ عن كلِّ ما حرَّم الله كالزِّنا والكسب الخبيث، والغنى هنا هو غنى النَّفس والاستغناءُ بالله عن النَّاس وعمَّا في أيديهم، والقناعةُ برزقه وقسْمه، وبذلك تتمُّ سعادةُ الدُّنيا[2].

فالعفَّة من أغلى المكاسب وأعلى المطالب، من طلبها بأسبابها أوتيَها، ومن جاهد نفسه لتحقيقها وصبر على تحمُّلها أُعطيَها، روى البخاري (1469) ومسلم (1053) أن رسول الله ﷺ قال: «ومن يستعففْ يُعفَّه الله، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِه الله»، هذا كلامٌ جامعٌ في العفة، يدخل تحته كلُّ أنواعها وجميعُ أضرابها، فمن الخَطَل قصرُها على العفَّة عن سؤال النَّاس، والاستغناء عنهم بسؤال الله تعالى، وهذا حقٌّ وهو المرادُ ابتداء، كما يدلُّ عليه سبب ورود الحديث، فقد أعطى النَّبيُّ ﷺ ناسًا من الأنصار حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَه، لكن العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، ومن فقه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ تبويبه على الحديث بقوله: بَابُ الصَّبْرِ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ.

وعليه يدخل في العفَّة عفَّةُ القلب عن الطَّمع والاستشراف والنِّفاق والعُجْب والرِّياء، وعفَّةُ اللِّسان عن الكذب واللَّغو والفُحش وسؤالِ النَّاس، وعفَّةُ البصر عن المحارم والعورات، ومدِّه إلى زهرة الحياة الدُّنيا الفاتنة، وعفَّةُ الفَرْج عن الزِّنا واللِّواط والاستمناء، وعفَّة البطن عن الخبث والسُّحت وأكلِ أموال النَّاس بالباطل، وعفَّة اليدين والرِّجلين عن أذى النَّاس والبطْش والمشْي المحرَّمَين، وعفَّة الجسد عن العُرْي والتَّبرُّج والزَّهو والخُيَلاء.

إنَّ الجزاء من جنس العمل، فمن طلب العفاف وترك ما حُرِّم عليه وصبر ابتغاء وجه ربِّه، وابتغى الحلال الطَّيِّب أعفَّه الله وبدَّله خيرًا ممَّا ترك، قال رسول الله ﷺ لرجل: «إنَّك لن تدعَ شيئًا اتِّقاءَ الله إلاَّ أعطاك الله خيرًا منه» [رواه أحمد (20739) والنَّسائي في «الكبرى» (11810)].

فمن استعفَّ وترك سؤال النَّاس رزقه الله القناعة وأغناه من فضله وآتاه رزقًا عاجلاً أو آجلاً، روى ابن حبان (3398) بإسناد حسن عن أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ

(1) انظر «أدب الدنيا والدين» للماوردي (321)، «تاج العروس» (172/24)، «لسان العرب» (253/9)، «التعريفات» للجرجاني (151)، «شرح مسلم» للنووي (106/12).

(2) انظر «شرح مسلم» للنووي (41/17)، «بهجة قلوب الأبرار» للسعدي (205)، «شرح رياض الصالحين» للعثيمين (529/1).

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ، فَسَمِعْتُهُ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ»، قَالَ: فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلْهُ، فَأَنَا الْيَوْمَ أَكْثَرُ الأَنْصَارِ مَالا».

ومن أحصن فرْجَه وتنزَّه عن الزّنا والنَّظر إلى العورات رزقه الله نورًا في قلبه، وحفظه من الفاحشة، وأعانه على النكاح ومُؤْنته، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ] «فأعاضها الله بعفتها ولدا من آيات الله ورسولا من رسله»[3]، وقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النُّور: 33]، فالاستعفاف وسيلة للغنى، كما قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاَثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُم الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ»، رواه الترمذي (1655) والنسائي (3120)، وحسنه الألباني.

ومن اتقى الله وتوكَّل عليه واستعانه على الحلال، وهجر الكسب الخبيث وأكْلَ أموال الناس بالباطل، أعفَّه الله وفتح عليه أبوابَ الرزق والبركة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ﴾ [سُورَةُ الطَّلَاقِ]، وروى أحمد (205) والترمذي (2344) وصحَّحه الألباني عن عُمَرَ بن الخَطَّاب أنَّهُ سَمِعَ نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا».

ومن تنزَّه عن الكذب والإثم والخيانة والظلم وسوء الخُلق هداه الله إلى الصدق والبر والأمانة وحسن الخلق، قال ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا»، رواه البخاري (6094) ومسلم (2607).

ومن استعفَّت عن التّبرج والعُرْي والترجّل والاختلاط بالرجال حفظها الله وصانها ورزقها السِّتر والعزة والحياء والعفة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ].

فالعفيف في الإسلام يكون متطهِّرا عن الفواحش متنزِّها عن الرذائل، لا يُدنِّس دينَه وعرضَه ولا يخدش كرامته وشرفَه، يكون واثقا برزق الله قنوعا بقسْمه، حرًّا لا يطمع في أحد، عزيزًا لا يتملق لعبد، إذا أصابته فاقة أنزلها بربه، وسأله من فضله واستغنى به عن خلقه، روى أحمد (22757) وابن حبان (271) وحسنه الألباني من حديث عُبَادَة ابن الصَّامت أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»، وأخرج البخاري (1429) ومسلم (1033) عنْ عبد اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَذْكُرُ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا الْمُنْفِقَةُ وَالسُّفْلَى السَّائِلَةُ».

هذه هي العفة التي دعا إليها الإسلام وجعلها من أصوله في تربية الفرد وبناء الأمة وإرساء قواعد عزّها وتثبيت أسس نهضتها، قَال هرقل لأبي سفيان: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قال: يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ... قال هرقل: فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ. رواه البخاري (07) ومسلم (1773) وفي لفظ: «إن يكن ما تقول فيه حقا فإنه نبيٌّ».

وهي بمفهومها الواسع الشَّامل أصلٌ ركينٌ وأساسٌ متينٌ يقوم عليه المجتمعُ القويُّ الطَّاهر النَّظيف، المجتمعُ الذي تسوده الفضيلةُ والعزَّة والنصيحة والطهر والنزاهة، وحفظُ الدم والعِرض والمال، والصدقُ والأمانة والحياء والصِّيانة، المجتمع الذي يرفُض الخُبثَ والخمر والربا والرذيلة والخنا والغش والخيانة والرُّخص والمهانة، المجتمع الذي ينكر الإباحيةَ والعلمانيةَ الداعيةَ إلى فصل الدين والأخلاق عن الدولة وحياة الناس، وعزل العفة عن القيَم، ينكر العلمانيةَ القائمةَ على أساس أن كل مجتمع ينتهج الأخلاق التي تلائمه دون التقيد بالدين.

إن المفهومَ الإسلاميَّ للعفة يعاكس جملة وتفصيلا ما تدعو إليه المنظومةُ العلمانيةُ من الإباحية والتفسخ الأخلاقيّ وتحرير المرأة ومساواتها بالرجل، والتبرج والعري والاختلاط والشذوذ الجنسي والألبسة الفاضحة - المنافية للحياء والطُّهر والعادات الحسنة - والأفلام الهابطة والأغاني الساقطة،«حتى آلت الحال - واحسرتاه - إلى واقع شاع فيه الزنا، وشُرعت فيه أبواب بيوت الدعارة ودور البغاء بأذون رسمية، وعمرت خشبات المسارح بالفن الهابط من الغناء والرقص والتمثيل، وسُنّت القوانين بإسقاط الحدود، وأن لا تعزير عن رضا

(3) «تفسير السعدي» (491).

وهكذا...، من آثار التدمير في الأعراض والأخلاق والآداب»[4].

وهذا ما يدعو إليه عبيدُ الشهوات ودعاة التحلل الأخلاقي وأعداءُ الإسلام والفضيلة، ولقد اجتهدت فرنسا الصليبية - منذ وطئت أقدامُها الخبيثةُ الجزائرَ الطيبةَ - في تأصيل ذلك وتثبيته للقضاء على التَّديُّن والعفة والأصالة، قال محمَّد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ (244/5): «فما رأينا استعمارًا أفجر من الاستعمار الفرنسي ولا أخشن منه مسًّا، فهو يتعمَّد جعلَ الرذائل أساسًا لحكمه ومعاملته للضعفاء الذين يقعون في قبضته: فمن ظُلْم لا رحمة معه، إلى استئثار لا عدل فيه، إلى نهم لا قناعة فيها، إلى لصوصية لا حدَّ لها؛ ولو اقتصر بلاؤه على الظواهر المادية لهان الأمر قليلًا، لكنه يجاوزها إلى الدين... ومن تعمُّقه في المكر وقلب الحقائق أنَّه يُسخِّر تلك القوانين لحماية الرذيلة، فالذي يفتح مدرسة لتعليم الأطفال مبادئ دينهم ولغتهم مجرم مخالف للقانون، أما الذي يفتح مخمرة يُفسد بها عقول الناس ويُتلف أموالهم فهو حرٌّ تحميه تلك القوانين، وأمثال هذا كثير».

ومن أغرب مصائب هذا الزمان وبلاياه أنَّ أقوامًا يفتخرون بالرذيلة ويتبجَّحون بالدعارة، ويتنافسون في الموضات وكشف العورات وشرِّ السهرات، حتى انسلخوا من الفضيلة ومرَقوا من العفة، وألِفوا النتْنَ واستحسنوا الخُبْثَ، ورمَوْا الأعفَّاء بالجهل والتخلُّف، واتَّهموهم بالغلوّ والتطرُّف، فالعفةُ عندهم جريمةٌ يُعاقَب عليها وعيبٌ يُسخَر منه.

ولكلٍّ قوم وارثٌ، فقد افتخر قوم لوط ﷺ بفاحشة اللواط، وسخروا منه ومن آله لكونهم يتطهرون منها، قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ]، يتطهَّرون أي: يتنزَّهون عن مجالستهم ومشاركتهم في فَعْلتهم النَّكراء.

فالعَجبُ كيف تصير العفَّةُ والتطهُّرُ منكرا والرذيلة والفاحشة معروفا، لكن من غَرِق في الخَلاعة والإسفاف استثقل الطَّهارة والعَفاف، ومصاحبةُ الأشرار تُورث سوءَ الظنِّ بالأخيار.

إنَّ العفة علامةُ الرجولة والمروءة وآيةُ الشرف والسيادة، وهي تاجٌ على رؤوس الأخيار، وزينةٌ لقلوب الأطهار، ويكفيهم شرفًا وفخرًا أن ربَّهم يحبُّهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

وقد كان العقلاءُ من بني آدم - ولا يزالون - يفتخرون بها ويحمدون الله عليها، قال ابن الجوزي في كتابه «ذم الهوى» (176) «الباب الواحد والثلاثون: في الافتخار بالعفاف» ثم روى بسنده آثارًا كثيرة تدل عليه.

من ذلك لمَّا قُطعت رِجْلُ عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللهُ نظر إليها وقال الحمد لله، أمَا والذي حملني عليك إنه ليَعْلم أني ما مَشيت بك إلى حرام قطُّ، وقال أبو يوسف في مرضه الذي مات فيه: «اللهم إنك تعلم أني لم أطأ فرْجا حراما قطُّ، وأنا أعلم، اللهم إنك تعلم أني لم آكل درهما حراما قط، وأنا أعلم»، وقال إبراهيم بن أبي بكر بن عياش: «شهدت أبي عند الموت فبكيت، فقال: يا بُنيَّ ما يبكيك؟ فما أتى أبوك فاحشة قطُّ».

يتحدثون - وهم على فراش الموت - بنعمة الله عليهم، وهي كونهم عاشوا أطهارًا أعِفَّاءَ طَوالَ حياتهم.

وأنشد بعضهم:

مَنْ كَانَ مُلْتَمِسا جَلِيسا صَالِحا
فَلْيَأْتِ حَلْقَةَ مِسْعَرِ بنِ كِدَامِ
فِيها السَّكِينَةُ وَالوَقَارُ وَأَهْلُهَا
أَهْلُ العَفَافِ وَعِلْيَةُ الأَقْوَامِ[5]

(4) «حراسة الفضيلة» لبكر أبو زيد (146).

(5) «السير» (170/7).



فالنُّزهاءُ الأعفاءُ هم السادة المطاعون عند أهل الرشد والنُّبل، بخلاف أهل الطمع والأَثَرة والفجور والخيانة، روى البيهقي في «الشعب» (10397) عن أبي عَمْرو بن الْعَلَاء أنَّه قال: «كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ لا يُسَوِّدُونَ إلا مَنْ كَانَتْ فيه سِتُّ خِصَالٍ: السَّخَاءُ وَالنَّجْدَةُ وَالْحِلْمُ، وَالصَّبْرُ وَالتَّوَاضُعُ وَالتَّأَنِّي، تَمَامُهُنَّ في الإِسْلامِ الْعَفَافُ».

ولهذا كان من أخلاق القاضي والحاكم والعالم في الإسلام العفةُ والترفعُ عن الأطماع والتنزهُ عن الرذائل، فالطمعُ يُذهب بهجةَ الحقِّ والعلم، والشرُّ يُخفي رونقَ الصواب والفهم.

قال عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَمْسٌ إِذَا أَخْطَأَ الْقَاضِي مِنْهُنَّ خَصْلَةً كَانَتْ فِيهِ وَصْمَةٌ أَنْ يَكُونَ فَهِمًا حَلِيمًا عَفِيفًا صَلِيبًا عَالِمًا، سَؤُولاً عَنِ الْعِلْمِ» علقه البخاري ووصله ابن سعد (369/5)، قال ابن حجر (149/13): «عَفِيفًا أَيْ يَعِفُّ عَنِ الْحَرَامِ فَإِنَّهُ إذا كَانَ عَالِمًا وَلَمْ يَكُنْ عَفِيفًا كَانَ ضَرَرُهُ أَشَدَّ مِنْ ضَرَرِ الْجَاهِلِ»، وقال الإبراهيمي (4/ 117): «وواجبُه - أي: العالم - أن يطهِّر نفسه من خلق الخضوع للحكّام والأغنياء وتملّقهم، طمعًا فيما في أيديهم، فإن العفة هي رأس مال العالم فإذا خسرها فقد خسر كلَّ شيء، وخلفها الطمع فأَرْدَاه».

ويتعين كذلك على من كان أميرا أو مسؤولا أو ناظرا لوقف أو وصيًّا على مال يتيم أن يتَّقيَ اللهَ ربَّه ولا يأخذَ إلا رزقَه ولا يأكلَ إلاَّ بالمعروف، حفاظًا على مال الأمة وصيانةً لمال اليتامى، قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

هذه الآيةُ الكريمةُ نزلت في وليِّ اليتيم القائم عليه، فإذا كان غنيًّا استعفف عن الأكل أي: تنزَّه عنه، وإذا كان محتاجًا فله أن يأكل بالمعروف، أي: بقدر حاجته وبما جرت به العادة، واختلف الفقهاء هل يردُّ إذا أيسر، على قولين[6].

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي أَنْزَلْتُ مَالَ اللهِ تَعَالَى مِنِّي بِمَنْزِلَةِ مَالِ الْيَتِيمِ، إِنِ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ، وَإِنِ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا أَيْسَرْتُ قَضَيْتُ» رواه ابن سعد (276/3) والطبري (412/6) وإسناده صحيح.

هذا من تقوى أمير المؤمنين واحتياطه لأموال المسلمين وخوفه من رب العلمين، وليُتأمَّل كيف ختم تعالى الآية بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، أي محاسبًا الأولياءَ والأوصياء على أموال اليتامى ومراقبا لهم، وفي هذا تحذير وتهديد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

هذه هي العفة والنزاهة والأمانة التي جاء بها الإسلام، وقامت عليها دولتُه، واتَّسعت فُتُوحاتُه، والتي كانت سببًا من أسباب دخول الشعوب فيه، وخضوعهم لأحكامه.

فأين أدعياؤها الذين عاثوا في الأرض فسادًا وإفسادًا، وعبثوا بأموال الأمة وخاضوا فيها بغير حق، وخانوا وزوَّروا ونهَبوا وهرَّبوا، لا يتعفَّفون عن منكر ولا يتنزَّهون عن سوء، ثم يدّعون النزاهة وحُبَّ الوطنِ وخدمةَ الشَّعبِ والحرصَ على تربيةِ النشْء، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، وروى البخاري (3118) أنّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، يتخوضون أي: يتصرفون في مال المسلمين بالباطل والهوى والجوْر والمحاباة والسرقة والنَّهب والتَّهريب.

إنَّ الإسلام رائدُ العفاف، وأهلُه وعلماؤه دعاةٌ إليه، قال الإبراهيمي (384/3): «إنَّ جمعية العلماء حاربت الرذيلة جهارًا، وحاربت دعاة التحلل الأخلاقي كفاحًا، ووقفت من التبشير وغيره مواقف مشهودة، وإنَّها تُعلِّم البنتَ المسلمة العلمَ والعفاف، وتربِّيها على الكرامة والشرف، علمًا بأن العلمَ الدينيَّ هو رائدُ العفاف، وأنَّ الجهل هو سببُ انحدارها إلى ما ترونه وتتعامَون عنه».

والله الموفق والمعين، لا إلهَ إلا هو ولا ربَّ سواه، وصلى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

❋ ❋ ❋

(6) انظر «تفسير ابن كثير» (216/2).

بريد القراء



● بارك الله في الأستاذ الودود فتحي علُّوش من ولاية بلعبَّاس، على ما جادت به قريحته وخطَّته يمينه عن أهمِّيَّة الجماعة والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، واجتناب الفُرقة والبدعة، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: 103].

***

● من المتواصلين معنا أخونا الكريم بوكراع عبد الجليل من ولاية سطيف، فله وفاءٌ كبيرٌ للمجلَّة، وقَدَّم نصيحةً غاليةً للقائمين عليها مفادها: الصَّبر والثَّبات والمجاهدة والحرص على نشر العلم النَّافع والدَّعوة إلى الخير...

كما نصح المسلمين عمومًا باقتناء المجلَّة لما فيها من علم وفقه وحكمة.

وذكر ـ جزاه اللهُ خيرًا ـ قصَّةً ذاتَ عبرةٍ وهي أنَّ أحد الأجداد قال له: إنَّهم كانوا يحرصون على شراء مجلَّة جمعيَّة العلماء المسلمين؛ حرصًا على بقائها ودعمًا للقائمين عليها.

***

● نشكر المفضال مصطفى تشلابي من مدينة جوَّاب ولاية المديَّة

علـى خطابـه الطَّيِّـب الّـذي حيَّـى فيه المشـايخ والعُمَّـال القائمـين علـى مجلَّة الإصـلاح الغَرَّاء، وشـكر فيه الأساتذة الّذين شـاركوا في الـدَّورة العلميَّة الَّتي أقيمـت في شـهر الله المُحـرَّم السَّـابق بمدينـة المديَّـة، والَّتـي كان لهـا الأثـر الطَّيِّـب في نفوس كثيـر مـن النَّاس.

أمَّا فيما يخصُّ طلبه وانشـغاله؛ فإنَّه يمكن له ولغيره الاستفادة من موقع «راية الإصـلاح» وغيره من المواقع السَّلفيَّة الَّتي هي على الجادَّة، وقد سبق لدار الفضيلة أن أخرجت بعض الكتابات المُتعلِّقة بالمرأة المسلمة.

ونشـكره كثيرًا على غَيرَتـه على اللُّغة العربيَّة والمرأة المسلمة والجزائر الحبيبة، وتحذيره مـن العقائـد الضَّـالَّة والأفكار الهدَّامـة كالتَّشيُّع والخـروج والعلمانيَّـة والتَّغريب والإباحيَّة.

وكلُّ هـذا ـ وإن سبقت الكتابـة فيـه ـ يحتـاج إلى مزيدٍ من التَّحرير والتَّوضيـح نصـرةً لدين الله ولغـةِ القـرآن وحفاظًا على المرأة المسلمة والوطن العزيز.

❋ ❋ ❋

● ولا ننسـى الأخ الكـريم سـهيل بوكرطوطـة مـن بلديَّـة العوانـة ولايـة جيجـل الّـذي أرسـل مقالاً بعنـوان: «من هم العلماء»، جاء فيه بيانُ صفات العالم حقًّا، فهو «من تضلَّع بالعلم الشَّرعي وألمَّ بأحكام الكتاب والسُّـنَّة وأقاويل السَّـلف، وكان عارفًا بالنَّاسـخ والمنسـوخ وبالمطلق والمقيَّد والمجمل والمفسَّـر...» إلخ، وبيَّن أنَّ حقيقـةَ العلـم وثمرتَه خشـيةُ الله تعالى، ومثَّل بعلمائنـا الأجِلاَّء: ابنِ باز والألباني والعثيمين ومقبل الوادعي وربيع بن هادي المدخلي.

فيجـب الرُّجوع إلى هؤلاء وغيرهم ممَّـن سـار علـى نَهجِهـم واقتفـى أثرَهـم، قـال محمَّـد بـن سـيرين: «إنَّ هـذا العلـمَ ديـنٌ، فانظـروا عمَّنْ تأخذون دينَكم».

فنسأل اللهَ أن يُسهِّلَ أمرَه وأن يَجعلَنا وإيَّاه من العلماء الرَّبانيِّين.

❋ ❋ ❋

● أمَّا الأخ الـوفيُّ عبد الغني قادري فله كل الشُّـكر والتَّقديـر على ملاحظته الطَّيِّبـة حول اشـتغال النَّاس بالجوَّالات وسـائر وسـائل الاتِّصـال الحديثـة، حيـث أخذت جـزءً كبيرًا مـن أوقاتهم، وصـدَّتهم عن الصَّـلاة والقـرآن وذكر الله الملك الدَّيَّان.

فالله المستعان وعليه التُّكلان.

❋ ❋ ❋

● وسُـرِرْنَا كثـيرًا بمشـاركة الأخت النَّبيلـة فاطمـة مـن باتنة حيث أرسـلت إلينـا قصـيدةً في مدح «مجلَّة الإصـلاح» والقائمين عليها، جاء فيها:

حيـَّاكِ يـا إصـلاحُ ربٌّ واحـد
ورعـــاك ربٌّ بـرحمةٍ وحنـــان
أبقـــاك ربُّ العـالمين مـــنـارةً
فوق الخـلائق تهدي كلَّ زمـان
يـا روضة الإصلاح أشرق نجمُكِ
وأنـــــار درب الـتَّـــائه الحيران
فامشي على درب الهدى وتقدَّمي
فـــإلـــهك ربٌّ عظيمُ الشَّـــان

نسـأل الله أن يحفظها ويرفع شأنها، أن يزيدها علمًا وتوفيقًا.

❋ ❋ ❋

● والشُّـكر موصولٌ إلى جميع الإخوةِ والأسـاتذة المتواصلين معنـا الدَّاعين لنا المجتمعين معنا على الصِّـراط المسـتقيم والمنهج القويم، الفرحين بمجلَّة الإصـلاح وموقعه؛ منهم:

فتحـي، بوعامـر إلياس، خـير الدين منصور من التبسة.

فنحييهم ونسـأل الله لنا ولهم مزيدا من العلم والعطاء والتوفيق.

❋ ❋ ❋